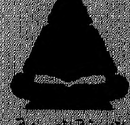


رحلة عبد اللطيف البغدادى فى مصر

أشرف على اعداد هذه الطبعة وقدم لها

د. عبد الرحمن عبد الله الشيخ



رحلة عبد اللطيف البغدادي في مصر

أو

كتاب الإفادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر

أشرف على إعداد هذه الطبعة وقدم لها

د. عبد الرحمن عبد الله الشيخ

الطبعة الثانية



الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٩٨

فهرس

دراسة رحلة عبد اللطيف البغدادى

وتحقيق أهم ما ورد بها

يعد هذا النص الذى بين أيدينا من أهم ما قدمه لنا الرحالة العرب عن مصر ، فهو نص علمى بكل معانى الكلمة ، وترجع أهمية هذه الدراسة التى نقدم بها للرحلة ، الى أنهـا تعطى لكتابات البغدادى طعما وتقرب معانيه للقارىء المعاصر ، كما تضفى على نص الرحلة أبعـادا عميقة فى نقاط بعينها كان يمكن أن يمر عليها القارىء العادى مرورا عابرا . ولم نتعرض فى هذه الدراسة لكل ما نريد توضيحه ، وانما اكتفينا بنقاط جوهرية ، وتركنا الباقى للتعليقات المفصلة التى ذيلنـا بها صفحات الرحلة ، وهى تعليقات وشروح تربـو على السبعين تعليقا وشرحا .

ويطالع القارىء فى هذه الدراسة عن رحـلة البغدادى (أنهى كتابتهـا سـنة ٦٠٠ هـ) ، تحليلا لما جعلنـا له عناوين فرعية كالتالى :

- المصريون ، أعراقهم وتعدادهم .
- عقيدة الحج الى أهرام مصر .
- لم يرد ذكر للأهرام فى التوراة .

- المصريون وأكل لحوم البشر ٠
- النبـــات ٠
- عن عالم الحيوان فى مصر ٠
- سر اختفاء التمســـاح ٠
- البغدادى والوصف الجغرافى ٠
- مكانة البغدادى بين الرحالة العرب ٠
- رحـــلة البغـــدادى تفسر بعض التعبيرات الشعبية المعاصرة ٠
- مؤلفات البغدادى الأخرى والمراجع التى تناولته ٠

المصريون ، أعراقهم وتعدادهم

يورد لنا رحلة البغدادى هذه كثيرا من المعلومات التى تفيدنا فى تحديد أعراق المصريين المعاصرين ومعـــرفة الدماء التى تسرى فى عروقهم • فهو عندما يحدثنا عن جفاف النيل أو انخفاض مستوى مياهه انخفاضا هائلا ، وما صاحب ذلك من مجاعة وقحط شديدين حتى أكل بعض الناس بعضهم الآخر ، وأكلوا الميتة حتى التى صارت رميما ، انما هو فى الواقع لا يحدثنا عن المماليك الذين جلبهم بنو أيوب أو بقايا المماليك من عصور سابقة (١) وانما يحدثنا عن المصريين الأصليين ، سواء منهم من صار مسلما أم ظل على مسيحيته ، فهؤلاء هم الذين عز عليهم الطعام ، بالاضافة لمصريين آخرين من أصول حبشية أو سودانية • أما مماليك بنى أيوب وغيرهم ، فقد كانت الأرزاق تصلهم من مناطق العالم الاسلامى غير المنكوبة ومن مخازن الدولة • لكن كرم الملك العــادل ومماليكه لم يظهر بشكل واضح الا فى التبرع بالأكفان ، اذ يذكر لنا ابن تغرى بردى فى كتابه الشهير (حسن المحاضرة) أنه كفن فى هذه السنة (٥٩٧ هـ) من ماله ٠٠٠ر٣٠٠ من الغرباء ، والمقصود هنا أهل مصر الذين هربوا من المجاعة الى القاهرة (يستخدم البغدادى لفظ مصر ليقصد به ســـكان الصعيد والدلتـــا ، أما القاهرة أو مصر القاهرة فيقصد بها العاصمة ــ المدينـــة المعروفة) ووزع بعض ماله على ذوى البيوتات والمساكين •

واذا علمنا أن هذه المجـاعة التى خربت بسببهـا مصر بحيث لم يصبح فى قرى بأكملهـــا نفس واحدة ، لم تكن هى

---

(١) لا نقصد كما لا يخفى على فطنة القارىء عصر الحكم المملوكى الرسمى الذى بدأ سنة ١٢٥٠ م (القرن الثالث عشر للميلاد) وانما نؤكد هنا ان الوجود المملوكى وانتشار هذا العنصر وحكمهم مصر بشكل غير مباشر يعود على الأقل للقرن التاسع للميلاد •

الوحيدة فى التاريخ المصرى ، وانما حدثتنا كتب التاريخ بايجاز عن قحط مشابه سنة ٢٩٠ هـ (الدولة الطولونية) وعن شدة أكلت الأخضر واليابس وراح فيهـــا خلق كثير زمن الدولة الفاطمية عرفت بالشدة المستنصرية ــ اتضح لنا أن العنصر المصرى الأصـــلى تعرض لهلكة شـــديدة ، ومع أن البغدادى قدم لنا وصفا مفعما بالحياة للمجاعة الناتجة عن هبوط النيل هبوطا شديدا فى أواخر أيام الدولة الأيوبية ، الا أنه من المفيد ذكر ما أوردته بعض المصادر الأصليـــة الاخرى ، وقد اخترنا أن ننقل من حوليـات ابن تغـــرى بردى فى كتـابه (حسن المحاضرة) عن هذه المجاعة ، لأنها ضبطت الحوادث بالسنوات بشكل دقيق :

حوادث سنة ٥٩٧ : « وفيها كان هبوط النيل ولم يعهد ذلك فى الاسلام الا مرة واحدة زمن الفاطميين ، ولم يبق منه الا شىء يســير وعم الغلاء والوباء بمصر ، فهرب الناس الى المغــرب والحجــاز واليمن والشـــام وتفرقوا وتمزقوا كل ممزق ..

قال أبــو المظفر : « كان الرجـــل يذبح ولده الصغير وتساعده أمه على طبخه وشـــيه ، وأحرق السلطان جمـاعة فعلوا ذلك ولم ينتهوا . وكان الرجـــل يدعو صديقه وأحب الناس اليــــه الى منزله ليضيفه فيذبحـه ويأكله ، وفعلوا بالأطباء كذلك فكانـــوا يدعونهم ليبصروا المرضى فيقتلونهم ويأكلونهم ، وفقدت الميتات والجيف من كثرة ما أكلوها . وكانوا يختطفون الصبيان من الشوارع فيأكلونهم . وكفن السلطان فى مدة يسيرة مائتى ألف وعشرين ألفا ، وامتلأت طرقات المغرب والمشرق والحجاز والشام برمم الناس ، ووصلى امام جامع الاسكندرية فى يوم مايزيد على ٧٠٠ جنازة . وقال العماد الكاتب الأصبهانى : وفى سنة ٥٩٧ : اشتد الغلاء وامتد البلاء وتحققت المجاعة وتفرقت الجمـــاعة وهلك القوى فكيف الضعيف ! ونحف السمين فكيف العجيف ! وخــرج الناس حذر الموت من الديار ، وتفرق فريق مصر فى الأمصار ، ولقد رأيت الأرامل على الرمال ، والجمال باركة تحت الأحمـــال ، ومراكب الفرنج واقفة بساحل البحر على اللقم ، تسترق الجياع باللقم » .

قال : وجاءت في شعبان زلزلة هائلة من الصعيد هدمت بنيان مصر ، فمات تحت الهدم خلق كثير ، ثم امتدت الى الشام والساحل فهدمت مدينة نابلس فلم تبق منها جدارا الا حارة السمرة (السمرة والسامرة قوم من اليهـــود من قبـــائل بنى اسرائيل يخالفون اليهـــود فى بعض أحكامهم كانكارهم نبوة من جاء بعد موسى عليه السلام وقولهم لا مساس وزعمهم أن نابلس هى بيت المقدس) ومات تحت الهـــدم ٣٠٫٠٠٠ وهدمت عكا وصور وجميع قلاع الساحل وامتدت الى دمشق فسقط بعض المنارة الشرقية بجامع دمشق ، وأكثر الكلاسة والبيمارستان النورى ، وعامة دور دمشق الا القليل ، فهرب الناس الى الميـــادين وســـقط من الجامع ست عشرة شرفة وتشققت قبة النسر (قبلى جامع دمشق) ٠

أمر النيل سنة ٥٩٨ :

الماء القديم ذراع واحدة وأربع عشرة اصـــبعا ٠ مبلغ الزيادة خمس عشرة ذراعا وثلاث وعشرون اصبعا ٠ ومن الأمور التى تسترعى الاهتمام أن البغدادى ميز لنا بين طعام العوام (المصريين الأصليين) وطعام الخواص (المماليك والرؤساء) فالأطعمة التى تدخل فيهـــا اللحوم بشكل واضـــح خاصـــة ما يسمى (رغيف الصينية) المحشو باللحـــم المدقوق واللوز والفستق والسكر وماء الورد والمقلو بزيت الســـيرج ٠٠ الخ هى من أطعمة الخواص ٠

أما العوام فيأكلون الملوحـــة (يسميهـــا البغدادى الصحناه) والخبز والتين الشوكى (يسميه البغدادى الصبر بكسر الصـــاد) ويشربون البوظـــة ، ويأكلون فيران الغيط (نوع من الأرانب ويسمونها الفيران البيضاء) ، ويصنعون من البطيخ الأخضر نوعا من النبيذ ٠

عقيدة الحج الى أهرام مصر

عنـــدما يقول لنـــا البغدادى ، انه قرأ فى بعض كتب الصابئة القديمة « أن أحـــد هذين الهرمين هو قبر غاذيمـــون والآخر هو قبر هرميس ويزعمون أنهما بنيانان عظيمان وان

غاذيمون (أو اغاذيمون) أقدم وأعظم ، وأنه كان يحج اليهما ويهوى نحوهما من أقطار الأرض ... » .. أقول اننا عندما نستمع الى ذلك من البغدادى بالذات ، فلابد أن نتنبه ونتوقف لان البغدادى ولد فى بغداد وعاش شطرا كبيرا من حياته فيها ، حيث طوائف الصابئة التى كان لها وجود على أيامه ، بل ولازالت موجودة حتى الآن . وقد أوردنا نقولا طويلة فى الحاشية تعليقا على ذلك من كتاب ابن حزم الظاهرى فليرجع اليها من يشاء ، أما هنا فلابد أن نذكر أننا نلمح شبها فعلا بين الحكم المنسوبة الى هرميس ، والحكم التى تطالعنا فى الكتب التى تتعرض لحكم الفراعنة ونصائحهم . وقد جعل الشهرستانى فى كتابه الشهير (الملل والنحل) الصابئة كأصحاب عقائد مقابلين للحنفاء (الموحدين الأوائل) وأجرى بين الطائفتين حوارا طويلا . والطريف أن الشهرستانى نفسه يذكر لنا أنه لا يستطيع أن يقول كل ما يعرفه عن هرميس والصابئة والحنفاء ، فيذكر لنا عبارة غامضة نؤثر نقلها كما هى :

« وكان فى الخاطر بعد زوايا نريد نمليها ، وفى القلم خفايا أكاد أخفيها ، فعدلت عنها الى ذكر حكم هرمس العظيم ، لا على أنه من جملة فرق الصابئة ، حاشاه ، بل على أن حكمه مما تدل على تقرير مذهب الحنفاء فى اثبات الكمال فى الأشخاص البشرية ، وايجاب القول باتباع النواميس الالهية ، على خلاف مذاهب الصابئة » (١) .

لكن الصابئة أنفسهم يعظمون هرميس وينتسبون اليه ، بصرف النظر عن قول الشهرستانى الذى اعترف هو نفسه أنه لا يستطيع أن يصرح بكل ما عنده . ومن حكم هرميس (أو هرمس) ما يتجلى من خلال حواراته التالية :

« .. سئل : بماذا يحسن رأى الناس فى الانسان ؟ قال : بأن يكون لقاؤه لهم لقاء جميلا ، ومعاملته اياهم معاملة حسنة .

---

(١) الشهرستانى ، أبو الفتح محمد ، الملل والنحل ، ج ٢ ، ص ٤٤ (طبعة دار المعرفة - بيروت) .

وقال : مودة الاخوان أن لاتكون لرجاء منفعة ، أو لدفع مضرة ، ولكن لصلاح فيه ، وطباع له ٠

وقال : أفضل ما فى الانسان من الخير العقل ٠ وأجدر الأشياء أن لايندم عليه صاحبه : العمل الصالح ٠ وأفضل ما يحتاج اليه فى تدبير الأمور الاجتهاد ، وأظلم الظلمات الجهل ٠ وأوثق الاسار الحرص ٠

وقال : من أفضل البر ثلاثة : الصدق فى الغضب ، والجود فى العسرة ، والعفو عند المقدرة ٠

وقال : من لم يعرف عيب نفسه ، فلا قدر لنفسه عنده ٠

وقال : الفصل بين العاقل والجاهل : أن العاقل منطقه له ، والجاهل منطقه عليه ٠

وقال : لاينبغى للعاقل أن يستخف بثلاثة اقوام : السلطان ، والعلماء ، والاخوان ٠ فان من استخف بالسلطان أفسد عليه عيشه ، ومن استخف بالعلماء افسد عليه دينه ، ومن استخف بالاخوان أفسد عليه مروءته ٠

وقال : الاستخفاف بالموت أحد فضائل النفس ٠

وقال : المرء حقيق له أن يطلب الحكمة ويثبتها فى نفسه أولا ، بأن لايجزع من المصائب التى تعم الأخيار ، ولا يأخذه الكبر فيما يبلغه من الشرف ، ولا يعير أحدا بما هو فيه ، ولا يغيره الغنى والسلطان ، وأن يعدل بين نيته وقوله حتى لايتفاوت ، وتكون سنته ما لا عيب فيه ، ودينه ما لا يختلف فيه ، وحجته ما لا ينتقض ٠

وقال : أنفع الأمور للناس القناعة والرضى ٠ وأضرها الشره والسخط ٠ وانما يكون كل السرور بالقناعة والرضى ، وكل الحزن بالشره والسخط ٠

ويحكى عنه فيما كتبه : أن أصل الضلال والهلكة ، لأهله ، أن يعد ما في العالم من الخير من عطية الله عز وجل ومواهبه. ولا يعد ما فيه من الشر والفساد من عمل الشيطان ومكايده . ومن افترى على أخيه فرية لم يخلص من تبعتها حتى يجازى بها . فكيف يخلص من أعظم الفرية على الله عز وجل أن يجعله سببا للشرور وهو معدن الخير ؟

وقال : الخير والشر واصلان الى أهلهما لا محـــالة . فطوبى لمن جـــرى وصول الخير اليه وعلى يديه ، والويل لمن جرى وصول الشر اليه وعلى يديه .

وقال : الاخاء الدائم الذى لا يقطعه شيء اثنان ، أحدهما محبة المرء نفسه في أمر معاده ، وتهذيبـــه اياها في العلم الصحيح والعمل الصالح . والآخر : مودته لأخيه في دين الحق ، فان ذلك مصاحب أخـــاه في الدنيا بجسده ، وفي الآخرة بروحه .

وقال : الغضب سلطان الفظاظة ، والحرص سلطان الفاقة ، وهما منشأ كل سيئة ، ومفسدا كل جسد ، ومهلكا كل روح .

وقال : كل شيء يطاق تغييره الا الطباع ، وكل شيء يقدر على اصلاحه غير الخلق السوء ، وكل شيء يستطاع دفعـــه الا القضاء .

وقال : الجهل والحمق للنفس بمنزلة الجوع والعطش للبدن ، لأن هذين خلاء النفس ، وهذين خلاء البدن .

وقال : أحمد الأشياء عند أهل السماء والأرض : لسان صادق ناطق بالعدل والحكمة والحق في الجماعة .

وقال : أدحض الناس حجة من شهد على نفسه بدحوض حجتـه .

وقال : من كان دينه السلامة والرحمة والكف عن الأذى، فدينه دين الله عز وجل وخصمه شاهد له يفلج حجته ، ومن كان دينه الاهلاك والفظاظة والأذى ، فدينه دين الشيطان ، وهو بدحوض حجته شاهد على نفسه •

وقال : الملوك تحتمل الأشياء كلها الا ثلاثة : قدح فى الملك ، وافشاء للسر ، وتعرض للحرمة •

وقال : لا تكن أيها الانسان كالصبى اذا جاع ضغا (١) ، ولا كالعبد اذا شبع طغى ولا كالجاهل اذا ملك بغى •

وقال : لاتشيرن على عدو ولا صديق الا بالنصيحة • فأما الصديق فتقضى بذلك من واجبه حقه ، وأما العدو فانه اذا عرف نصيحته اياه هابك وحسدك • وان صح عقله استحى منك وراجعك •

وقال : يدل على غريزة الجود السماحة عند العسرة ، وعلى غريزة الورع الصدق عند الشره ، وعلى غريزة الحلم العفو عند الغضب •

وقال : من سره مودة الناس له ، ومعونتهم اياه ، وحسن القول منهم فيه حقيق بأن يكون على مثل ذلك لهم •

وقال : لا يستطيع احد أن يحوز الخير والحكمة ، ولا أن يخلص نفسه من المعايب الا أن يكون له ثلاثة أشياء : وزير ، وولى ، وصديق • فوزيره عقله ، ووليه عفته ، وصديقه عمله الصالح •

وقال : كل انسان موكل باصلاح قدر باع من الارض ، فانه اذا أصلح قدر ذلك الباع صلحت له أموره كلها ، واذا أضاعه أضاع الجميع ، وقدر ذلك نفسه •

---

(١) ضغا صاح •

وقال : لا يمدح بكمال العقل من لاتكمل عفته ، ولا بكمال العلم من لا يكمل عقله ٠

وقال : من أفضل أعمال العلماء ثلاثة أشياء : أن يبدلوا العدو صديقا ، والجاهل عالما ، والفاجر برا ٠

وقال : الصالح من خيره خير لكل أحد ، ومن يعد خير كل أحد لنفسه خيرا ٠

وقال : ليس بحكيم ما لم يعاد الجهل ٠ ولا بنور ما لم يمحق الظلمة ٠ ولا بطيب ما لم يدفع النتن ، ولا بصدق ما لم يدحض الكذب ، ولا بصالح ما لم يخالف الطالح » ٠

ويعدد الشهرستاني طوائف عديدة للصابئة ولا يجعلهم فرقة واحدة ، فمنهم أصحاب الهياكل ، والمقصود الهياكل التي يشيدونها للكواكب السيارة ، وقد اهتموا اهتماما شديدا بالصور والتماثيل والأيقونات التي ترمز لأرباب بعينها ، أما الله سبحانه فيسمونه رب الأرباب أو اله الآلهة ، ومنهم أصحاب الأشخاص الذين أقاموا الهياكل لكن ليس للكواكب ، وانما لأشخاص يقربونهم لرب الأرباب ٠

وقد أوردنا فيما سبق مقتبسات طوالا تنسب لهرمس (هرميس) الحكيم الذي يوقره الصابئة ، الذين لازالوا — كما سبق القول — يحتلون مكانهم على الخريطة الدينية للعالم، والذين ورد ذكرهم في القرآن الكريم في قوله تعالى :

« ان الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » (١) واشارة القرآن الكريم هذه تدل على أن الصابئة كانوا في وقت من الأوقات من أصحاب المعتقدات الصحيحة ، ثم تلوثت معتقداتهم بالشرك وعبادة الكواكب وعبادة الأوثان ٠

---

(١) البقرة — الاية ٦٢ ٠

ولعلنا نكون قد فتحنا بايرادنا هذه النصوص فى هذا السياق بابا للمهتمين بدراسة العقائد المرتبطة بأهرام مصر ، وفتحنا بابا آخر للربط بين المصادر الاسلامية والمصادر الآثارية فى هذا الموضوع المهم ، الذى لا نستطيع أن نبت فيه وانما امر ذلك لمن هو أدق تخصصا وأعمق نظرة ٠

★★★

ويحدثنا قاموس الكتاب المقدس فى مادة هرماس أنها صيغة من صيغ الاله هرميس ٠ وقد ورد كاسم لأحد سكان روما المسيحيين ، أرسل اليه بولس سلامه ، بل لقد نسب اليه الآباء الأولون كتابة السفر المعروف براعى هرماس الذى يحتوى على رؤى وأمثال ووصايا ٠٠ ونقرأ فى مادة هرمس فى القاموس نفسه أن بولس وبرنابا عندما عملا بعض العجائب (المعجزات) ، ظنهما الناس الالهين التائهين هرمس وزفس وقدم الشعب اليهما الذبائح ، الا أن بولس نهاهم عن ذلك وأكد أنهما بشر مثلهم ٠

نحن اذن ازاء شخصية وردت فى التراث الاسلامى ، ولها وجود فى التراث المسيحى ، كما أنها محور عقائد الصابئة ، وهى فى الوقت نفسه مرتبطة بالاهرام ٠ انها بالتأكيد شخصية يمكن استثمارها والاستفادة منها وتسويقها ، وبث الافكار حولها ، وجلب المنافع منها ، وكذلك يفعلون ٠

★★★

لم يرد ذكر للأهرام فى التوراة

ويقول لنا البغدادى ما نصه : « ٠٠ واعلم أن الاهرام لم أجد لها فى التوراة ذكرا ولا فى غيرها ولا رأيت أرسطو ذكرها ٠٠ » ، وقد اردنا التحقق من هذا فراجعنا العهد القديم

كله واستعنا بقاموس الكتاب المقدس (١) فكشفنا فى حرف الهاء (هرم) وفى حرف الألف (أهرام) ، فلم نجد لأى منهما ذكرا ، فكيف اذن بنوه أو شاركوا فى بنائه (٢) ؟!

أكل لحـــوم البشر

« أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه »

مرت البشرية فى مرحلتها البدائية بأكل لحم البشر ، بمعنى أن الجماعة البدائية كانت تعكف على جثـــة المتوفى القريب أو الحبيب أو الغريب ، فتأكله ميتا بعد طبخه أو بدون طبخ ، وفى حالة وقوع الحروب أو المناوشات أكل المنتصرون اعداءهم المهزومين بعـد قتلهـم أو خنقهم أو شرب دمهـم .. وشاع هذا عنـد حدوث المجاعات أو قلة الطرائد الحيوانية . لكن الانسان بعد أن تدرج فى سلم الرقى والحضارة أدرك بشاعة ذلك ، فاليهودية قد وقرت الانسان لأن الله سبحانه ـ فيما تقول التوراة ـ خلقـــه على مثاله ، والمسيحية جعلت للانسان قيمة عالية ، وكان « لابن الانسان » فيها مكانة وأى مكانة . واحترام الاسلام للانسان وتوقيره له ، مسألة معروفة مطروقة ـ وكانت مصر مسرحا لهذه الأديان جميعا : شـــهدت دعوة موسى ، وسرفت بوصول المسيح وأمه اليها ، وكان لها فى الاسلام دور وأى دور ، كما تدرجت مصر فى سلم الحضارة درجات عالية حتى قبل الأديان السماوية ، ومن هنا فما ذكره البغدادى عن شيوع أكل لحوم البشر أثناء المجاعة التى حلت بمصر فى السنين الأخيرة من القرن السادس الهجرى / الثانى عشر للميلاد ـ مسألة فى حاجة الى تفسير ، كما أنها ذات دلالات على التركيب السكانى فى مصر فى هذه الفترة .

---

(١) هيئة تحـريره : د. بطرس عبـد الملـك ، د. جون الكساندر طمسون ، وابراهيم مطر .

(٢) اشار البغدادى لخلو التوراه من ذكر الاهرام فى آخر الفصل الخامس ، المقالة الأولى .

لقد قدم لنــــا البغدادى صورة بشعة عن امرأة تأكل فخذ زوجها ميتا ، وآخرين يتنازعون وليــــدا « لحيما » أى سمينا ، وعن جماعة يطبخون الاعضــــاء الآدمية ، ويحدثنا أن عقــاب من كان يفعل ذلك هو الحرق ، وبذلك يشــــوى فيتجمع على جثته المشوية خلق يأكلونه ، وبذلك يصبح الآكل مأكولا .. الخ . وفى الوقت نفســه ، فان البغدادى يقدم لنا اشارات تعيننا على فهم ذلك ، فهو يذكر أن امرأة « تجسرية » فعلت ذلـــك ، وقبـــائل التجريين أو التجرانيين Tigre هى قبائل سوداء من أطراف الحبشة .. ولم يقم البغدادى بدور الأنثروبولوجى فيعين لنا أعراق من فعلوا ذلك ، ولو أنه فعل لأراحنا وفسر لنا كثيرا مما غمض علينا .

وفى سياق آخر يحدثنــا عن امرأة من « الأجنلا » ذات مال ويسار كان زوجها غائبا فى الخدمة ، ويتضح من الاسم « اجنلا » ايضا أن المرأة ذات أصــــول تعود بهـــا الى شرق أفريقيـــا أو وســطها ، ولا يبعد أن تكون من قبــائل الجــلا Galla ، وذكر البغدادى أن زوجهـــا كان غائبـــا فى الخدمة تعنى أنه كان من حرس الحدود مثلا أو من العاملين فى الخدمات المساعدة للجندية .. الخ .

واذا علمنا أن هذه المجاعة المصحوبة بالأوبئة رغـم فظاعتها (لدرجة أنها تركت قرى كاملة خالية من أى بشر) لم تكن هى الأولى من نوعها فى التاريخ الاسلامى على الاقل كما أشرنا فى موضع آخر من هذه الدراسة ، لاتضح لنا أن مصر كانت فى وضع يسمح لها باستقبال هجرات من الجنوب، سواء على شكل تسلل ارادى سلمى أو على شكل استجلاب رقيق .. وقد أحضر هؤلاء معهم تراث الثقافة البدائية بما فى ذلك أكل لحم البشر ، لكن هذا على أية حال سرعان ما تلاشى بفعل التأثيرات الحضارية والدينية المصرية العريقة ، ومع هذا فقد ظل هذا مخزونا فى اللغة والتعبيرات ، فالحديث عن بلاد « نمنم » ظل يتردد فترة طويلة على لســـــان الأمهـات والجدات ، والتحذيرات من نساء سوداوات لهن ذيول ظل يتكرر فى بعض البيئات،وبعض الاخوة فى السودان فى بعض البيئات اذا أثرت سخطه ، هددك بأن يأكلك « هاكلك والله ،

هاكلك » ولا شك أن احـد المسئولين الكبار سمع من جدته أو أمه ــ وكانت من وسط أفريقيا ــ أنه ان ارتكب خطأ فانها « ستفرمه » وتجعله « كفتة » ، ومن هنـا فقد استخدم هذا المسئول التعبير نفسه فى احدى المناسـبات ، وهو تعبير مختزن يعود الى قبائل وسط أفريقيا •

وقد ظل انكار وجـود ظاهرة « أكل لحوم البشر » بين القبائل الافريقية مسالة بدت ضرورية خاصة فى مرحلة التحرر الافريقى ، لكن الحقيقة أن هذه الظاهرة كانت قائمة لتشير الى مرحلة مرت بها البشرية ، وأنها ــ أى هذه الظاهرة ــ بدأت تتلاشى رويدا رويدا . الى أن انتهت • وقد حدثنا الرحالة فارتيما (الحاج يونس) عن هذه الظاهرة نفسها فى بعض مناطق جنوب شرق آسيا ، وقد تمت الرحلة فى أواخـر القرن الخامس عشر وبدايات السادس عشر للميلاد •

ويحدثنا البغدادى عن ظاهرة بشعة أخرى شاعت أثناء هذه الشدة أو المجاعة الكبرى ، وهى بيع الأحرار ، ويذكر أن سفن الاجانب كانت تقترب من السواحل المصرية لتشترى « الأحرار » بالشىء القليـل ، وعرضت امرأة بائسـة ابنتها الجميلة على البغدادى ليشتريها فافتاها بأن ذلك « حرام » ، فقالت له اذن خذها « هدية » • ويبـدو أن الرجل قد قبل « الهدية » ولم يدفع شيئا ، لأنه لو دفع لكان ذلك « حراما » ولم يذكر لنا البغدادى أنه رفض الهدية •

وفى هذه الظروف كثر القوادون ، وحقق كثيرون ثراء لا يدرى أحد مصدره •

★★★

ولم يكن غريبا أن الفصل الخاص بالنبات وهو الفصل الثانى من المقالة الأولى ، من أكثـر فصـول الكتاب تفصيلا وتحليلا ، فعبد اللطيف البغدادى طبيب فى المقـام الأول ، وكانت معرفة الطب حتى عصر البغدادى (القرنين : ٦ و ٧ هـ ، ١٢ و ١٣ م) مرتبطة بعلم الأقرباذين أو علم الصيدلة ، وهذا العلم مرتبط بدوره بالنبات الذى منه معظـم الدواء • وقد وصف البغدادى معظم ما رآه من نبات وصفا مباشرا فحدثنا

عن البذور والجذور والسوق والأوراق ، وما اذا كان نباتا يؤكل أم أنه للتداوى أم أنه للأكل والتداوى معا ، وحدثنا عما يستخدم منه للزينة ٠

لكن البغدادى قدم لنا أيضا معلومات عن النبات ، نقلها من المصادر العربية أو اليونانية او اليهودية فقد نقل عن كتاب (المستغنى) وهو كتاب فى الأدوية المفردة لمؤلف عرف بالاسرائيلى ، وهو مؤلف يهودى اهتم بالطب والصيدلة والنبات ، وقد اعتمد عليه محمد بن محمد الأندلسى الشهير بالادريسى (١) بالاضافة الى مصادر أخرى فى كتابه : (الجامع لصفات أشتات النبات) ، فقد أشار الادريسى للمؤلفين الآتى ذكرهم ، وكلهم حقق شهرة فى هذا المجال ، وأشار الى بعضهم عبد اللطيف البغدادى فى أكثر من موضع :

- كتاب ستيفن فى المفردات (مفردات النبات) ٠
- كتاب جالينوس فى المفردات ٠
- كتاب الأدوية المفردة لحنين بن اسحق ٠
- الفائدة لابن سيرامون ٠
- النبات لابن جلجل ٠
- كتاب الأدوية المفردة لخلف بن عباس الزهراوى ٠
- كتاب المستغنى للاسرائيلى ٠

وليس أدل على أهمية اشارات البغدادى للنباتات المختلفة من أن ابن البيطار المتوفى سنة ٦٤٦ هـ قد اعتمد عليه بالاضافة لاعتماده على المصادر اليونانية ، وكتاب ابن البيطار مشهور معروف يعد علامة بارزة فى تاريخ علم النبات وعلم الصيدلة وعلم الأغذية على سواء ٠ وقد اعتمد

---

(١) ولد بسبتة ٤٩٣هـ/١٠٩٩م ٠ تلقى العلم فى قرطبة واستقر زمانا فى بلاط الملك النورماندى روجر الثانى فى بالرمو بصقلية ، ولذلك سمى بالصقلى ٠ من كتبه أيضا : « نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق » ، وكتاب « المسالك والممالك » ٠

ابن البيطار (١) ـ كما اعتمد البغدادى من قبله ـ على المشاهدة والملاحظة والتجربة بالاضافة للنقل والسماع •

وقد سمع عبد اللطيف البغدادى من بعض أهل البلاد أحاديث عن النباتات لم يعد هناك شك فى خطئها ومع ذلك ، فقد خضعت مثل هذه المعلومات الخاطئة لتحليلات عميقة ، فبعد أن شرح البغدادى لنا شيئا كثيرا عن نبات القلقاس ، وعن النخيل ذكر لنا أن شجرة الموز هى عوان بين القلقاس والنخيل ، وأن بعض الناس أخبروه أنه اذا وضع نواة البلح فى قلب قلقاسة وزرعها أنبتت موزا ، وهذا بالتأكيد خطأ لا جدال فيه ، وكان ينبغى أن يتوثق منه البغدادى ، وقد استبعد الرجل ذلك بالفعل ، لكنه راح يعقد مقارنة بين شجرة الموز ، وبين النخلة وشجرة القلقاس معا ، فخلص الى ان شجرة الموز بالفعل عوان بين الشجرتين ، وكان تحليله ممتعا •

ومن استنتاجاته الخاطئــة أيضــا أن الزنجبيل هو القلقاس ، لكنــه فى اليمن يكون زنجبيلا لحرارة الجو ، وفى مصر قلقاس لرطوبة الجو ، وذكر أن القلقاس اذا لم يطبخ كان فيه حرارة كحـــرارة الزنجبيل يحس المرء لسعها فى الحلق • وقد اعتمدنا فى تحقيق أسماء النباتات الواردة فى هذا الفصل على جملة مراجع منها :

ـ معجم المصطلحات العلمية والفنية (مدخله باللغة العربية) الذى أعده يوسف خيـــاط وألحقه بطبعته المعدله للســـان العرب لابن منظور (أعاد ترتيبـــه وفقا لأوائل الكلمات) •

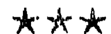
ـ معجم الشهابى فى مصطلحات العلوم الزراعية •

ـ راجعنـا فى بعض المواد مثـل (قرظ) و (عفص) تذكرة داود الأنطاكى (مرتب هجائيا) ، وهو « تذكرة أولى

---

(١) عبد الله بن أحمد بن البيطار صاحب كتاب (الجامع لمفـردات الأدوية والأغذية) عشاب معروف ، أندلسى مالقى ، توفى سنة ٦٤٦ هـ وقد ألف كتابه هذا بتكليف من الملك صالح نجم الدين أيوب ، مرتبـا حسب حروف المعجم •

الألباب الجامع للعجب العجاب » طبعة القاهرة ـ مكتبة الثقافة الدينية • جزءان فى مجلد واحد وبآخره ذيل التذكرة لأحد تلاميذ المؤلف • لكننا لم ننقل فى تعليقاتنا كل ما ورد فى هذه التذكرة واكتفينا بما هو متفق مع معجمى الشهابى وخياط ، ومن أراد مزيدا من التفاصيل فعليه مراجعته •



عن عالم الحيوان فى مصر

ويتعرض البغدادى فى الفصل الثالث من المقالة الأولى لحيوانات مصر ، وهو لا يقدم فى هذا الفصل عرضا مفصلا (الى حد ما) كما فعل فى فصله المتعلق بالنبات ، وانما هو يورد قليلا من الامثلة ، على انه افاض فى الحديث عن الترفيد ـ أى عملية تفقيس الكتاكيت فى المراقد بطرائق صناعية مختلفة ـ عن ترك البيض تحت الدجاج حتى يفقس • وهى عملية ـ فيما يبدو ـ اختص بها المصريون ، وظلت تثير عجب الرحالة حتى القرن السابع عشر للميلاد : فنحن نجد الرحالة البريطانى جوزيف بيتس الذى تسمى باسم الحاج يوسف يذكر لنا :

« •• وللمصريين طريقة طريفة فى تفقيس الكتاكيت ، وقد يظن بعض من يقرأ كلامى أننى أروى خرافة ، ولكننى أؤكد أننى رأيت ذلك بنفسى وأن ما أرويه حقيقى • فلدى المصرى مكان محفور تحت الأرض لا يبعد فى شكله عن الفرن وقد فرش قاعه بالقش ، يضع فيه بضعة آلاف من البيض متراكمة بعضها الى جوار بعضها الآخر وفوق بعضها ، ويتركها لتفقس بفعل حرارة الشمس دون الاستعانة بدفء دجاجات ، أو دفء أى كائن منتج آخر ، فاذا ما فقس البيض وظهرت الكتاكيت يبيعونها للفقراء بالكيل ••• » (١) • لكن البغدادى

---

(١) بيتس : جوزيف ، رحلة الى مصر ومكة المكرمة والمدينة المنورة القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ سلسلة الالف كتاب الثانى ـ ١٨٩ ، ١٩٩٥ • ص ٣٦ •

كان أكثر دقة من بيتس فى وصف هذه المراقد ، فراح يصفها بالتفصيل مؤكدا أن تصميمها من الداخل يحاكى شكل الدجاجة ٠

الحمار المصرى الأصيل

ويتعرض البغدادى فى عجالة وفى جمل قصار لخيول مصر ٠ ويستوقفنا ما اورده عن الحمار فهو يقول ، ان حمير مصر فارهة جدا وتركب بالسروج وقد تسبق فى جريها الخيول والبغال النفيسة ٠

ولعل لذلك سياقا تاريخيا قد يكون من المفيد ذكره ، ذلك أنه فى بعض مراحل التاريخ جرى تحريم ركوب الخيل على غير المسلمين ، كما جرى تحريم البسة معينة ، ولم يكن ذلك فى الواقع الا لاسباب متعلقة بالأمن الداخلى فى فترة كان من الضرورى التمييز فيها بين العناصر العسكرية والعناصر المدنية ٠ وبصرف النظر عن تفسير ذلك ، فالمهم هنا أن نذكر أن هذا الخطر دفع اليهود والنصارى الى الاهتمام اهتماما شديدا بالحمير ، فاصبح الحمار الذى يركبه اليهودى ذو الحيثية او النصرانى ذو الحيثية ، قويا متينا معتنى به ربما فاق البغل أو بعضا من الخيل . وفى ظل هذه الظروف ارتفع ثمن بعض الحمير ليصل الواحد منها الى اربعين دينارا ٠ وهكذا لم يستفد من هذه التفرقة الا الحمار ٠ ولعل هذه الظروف التاريخية تفسر لنا انتشار هذا الصنف من الحيوان فى مصر وكثرة توالده ٠ هذا بطبيعة الحال بالاضافة لأسباب أخرى ربما تكون أهم ، وهو الحاجة الشديدة اليه فى العمل الزراعى ٠

قاعد ينش !!

وتفسر لنا هذه الرحلة وغيرها من الرحلات ، كثيرا من العبارات التى لازالت شائعة رغم اننا لم نعد نعلم ظروفها التاريخية التى نشأت بها ٠ فمن التعبيرات الشائعة بين

المصريين فى وصف الشخص الذى لا عمل له (أنه قاعد ينش) وربط العامة بين هذا التعبير « بنش » الذباب أى ابعاده ، بينما لا علاقة فى الواقع بين النش والذباب فالتعبير المناسب لابعاد الذباب هو (دب الذباب) ، بل لقد قيل ان الذباب ما سمى ذبابا الا لانه كلما ذب آب ، أى كلما ذب أى أبعد ، آب أى رجع (ذب — بضم الذال وتشديد الباء وفتحها) . نعود الى الأصل التاريخى الذى يوضحه لنا البغدادى لتعبير (قعد ينش) . فى لسان العرب لابن منظور نشيش المياه جفافها . نش الغدير او الحوض او النهر ينش نشا ونشيشا اى يبس ماؤه ونضب ، وقيل نش الماء على وجه الأرض أى نشف وجف ، وقد استخدم البغدادى تعبير نش النيل أى جف وذلك فى سنوات الجفاف والشدة ، ولا شك أنه استخدم هنا التعبير الشائع على ألسن المصريين الذين حدثوه عن أن النيل قد نش ، وشاهد هو بنفسه نشيش النيل . واذا نش النيل نش المصريون ، فالمصريون فلاحون زراع ، وماذا يفعل الفلاح اذا لم يجد ماء أو اذا نش الماء ؟ انه هو أيضا يجف أى ينش اى يصبح غير قادر على العمل .. وانتهت ظروف جفاف النيل وعموم المجاعات لا أعادها الله بعد خزن المياه عن طريق السدود والقناطر والسد العالى ، ومع هذا بقى التعبير كامنا فى ضمير الشعب يتم استخدامه دون معرفة ظروفه التاريخية . ومن ذلك أيضا تعبير (قاعد يقشر بصل) أو فلان (يقشر البصل) للدلالة أيضا على البطالة وقلة العمل والضياع ، وهذا التعبير أيضا مرتبط بأيام جفاف النيل ، أو نشيش النيل ، ذلك أن المصريين الذين أصابهم الضر وعدموا المياه والطعام كانوا يهرولون الى قاع النيل الجاف حيث بقايا المياه ، وحيث نبتت الحشائش والابصال على بقايا مياه القاع ، فيعمد المصرى الى بعض هذه الابصال (النباتات البصلية أى ذات الجذور القابلة لأن تؤكل) فيقشرها ويأكلها ، فاذا افتقد واحد من المصريين صديقه أو قريبه وسأل عنه قيل له : « قاعد — فى قاع النهر — يقشر بصل » ، ولم يعد المصريون يقشرون بصلا فأيامهم غدت طيبة — أدام الله طيبها — ومع هذا ظل التعبير مخزونا فى اللغة الشعبية ، لتذكرنا بأيام جفاف النيل .

لماذا اختفى التمساح المصرى ؟

ويحدثنا البغدادى (القرنين السادس والسابع للهجرة / الثانى عشر والثالث عشر للميلاد) عن كثرة التماسيح فى النيل خاصة فى المجرى الرئيسى فى الصعيد ، ويذكر أن نسلها « كالدود كثرة » وأنها تكون « صغارا وكبارا » ، وان الكبير منها « ينيف على عشرين ذراع طولا » . وينقل البغدادى عن ارسطو قوله ان كبد التمساح « تهيج الجماع » أى تزيد من الطاقة الجنسية للرجال ، وأضاف البغدادى ناسبا لأرسطو قوله ان « كليتى التمساح ودهنه » ابلغ فى تحقيق هذا الغرض . ويبدو أن شيئا من هذه الفكرة لازال قائما الى الآن ، ذلك أن واحدا من عمال حديقة الحيوان تفرس فى وجهى المتغضن ولحيتى ـ بينما كنت اتنزه مع أولادى فى الحديقة ، وعرض على هامسا أن يبيعنى شيئا قدمه لى على أنه دهن تمساح . فلما سالته عن فائدته ، نظر الى بعمق ، فلما لم أفهم اغمض عينا وفتح اخرى ، وتركنى ورحل . أين ذهبت كل هذه التماسيح الكثير توالدها .. لاشك أن المصريين أسرفوا فى أكلها ، خاصة ونحن نقرأ فى تذكرة داود الانطاكى (١١ هـ / ١٧ م) ما يؤكد هذه الفكرة ويقول الانطاكى أن أكله يحرك الباه ـ المعنى مفهوم . وفيما يلى نص ما قاله :

« .. [تمساح] حيوان مائى فى الأصل لكنه يعيش فى البر وهو من ذوات الاربع يقال انه اغلظ الحيوانات البحرية جلدا ويبيض فى البر فيكون منه السقنقور (١) ، وصغاره تعرف بالورل قيل انه من خواص نيل مصر وانه يحرك فكه الأعلى دون سائر الحيوانات وانه لا يروث وانما يدخل فى جوفه طائر فياكل ما فيه ويخرج فان وجد فمه مطبوقا نقره بعظمة فى راسه حتى يفتح فاه وهو مفترس جبان قليل الجرى الا اذا كسر ولا ياخذ فى عمق الماء ويحب الغيلة وهو حار فى اخر الثانية يابس فى أول الثالثة أكله يحرك الباه (٢) ويخصب البدن ويقطع القولنج وشحمه يحلل الأوجاع الباردة من المفاصل والظهر شربا وطلاء

---

(١) هذا خطأ لا شك فيه فالسقنقور غير التمساح .

(٢) أى الطاقة الجنسية .

ويفتح الصمم وإن قدم والصداع والشقيقة ولو سعوطا وزبله يجلو البياض مجرب والكلف والبهق وكذا دمه مع الاملج . ومن خواص شحمه اذهاب الربع طلاء وكبده اذهاب الجنون بخورا وعينه ايقاف الجذام تعليقا اذا قلعت وهو حي قيل ووجع العينين . ومن خواص معضوضه أن يتبعه النمل حيث كان حتى يدخل في الجرح فيقتل ويتخلص من ذلك البخور حوله بالكمون والقطران والتمساح عسر الهضم ردئ الغذاء ويصلحه الدارصيني ومعجون الكمون .. » (١) .

وقد أشار القاضي التيفاشي الذي عمل قاضيا في ظل الدولة الحفصية - كثيرا الى لحم التمساح وما يسببه من قوة وفحولة لمتعاطيه ، ولعل هذا هو السبب في رحيل هذا القاضي الى مصر التي ألف فيها كتابه المشهور (رجوع الشيخ الى صباه في القوة على الباه) (٢) .

البغدادي والوصف الجغرافي وتحديد المواقع الفلكية

ربما يجد القارئ غير المتخصص عجبا في أن البغدادي ابن القرن السادس الهجري / الثاني عشر للميلاد ، يحدثنا عن الموقع الفلكي لمصر فيذكر أن حدها الجنوبي هو ٢٢٫٥° درجة ، وأن منابع النيل تقع الى جنوب خط الاستواء ، والواقع أن الباحث الشهير كراتشوفسكي في كتابه (تاريخ الأدب

---

(١) تذكرة داود الانطاكي - حرف التاء - مادة تمساح .

(٢) التيفاشي المتوفى ٦٥١ هـ /١٢٥٣ م هو أحمد بن يوسف التيفاشي الذي ولد في تيفاش من قرى تفصة المدينة التونسية المشهورة في الجنوب العربي ، سافر الى القاهرة ومنها الى دمشق لكنه عاد الى القاهرة - ربما حبا في لحم التمساح - مات بمصر ودفن بمقبرة باب النصر ، ومن كتبه أيضا : أزهار الأفكار في جواهر الأحجار (حققه ونشره د. محمد يوسف حسن ومحمود خفاجي) .

الجغرافى العربى) (١) ، يقطع لنا بأن العرب أضـــافوا لعلم الخرائط خطوط الطول والعرض • وحقيقة أن الجغرافيين العرب اعتمدوا فى البـداية على كتاب الجغرافيا لبطليموس السكندرى ثم ــ بشكل أقل ــ على كتاب مارينوس الصورى ، لكن منذ عهد المأمون حلت الجغرافيا العربية الخالصة محل الجغرافيا اليونانية •

مكانة البغـدادى بين الرحالة العرب

يستحق عبد اللطيف البغداد أن يفـــرد له الباحثون فصلا مستقلا فى بحوثهـــم عن أدب الرحلة عنـــد العرب أو بحوثهم عن العرب والجغرافيا ، كما أن دراسة مفصلة عن العلوم عند العرب تخلو من ذكر عبد اللطيف البغدادى هى ــ بعينا ــ دراسة غير مكتملة •

ان معظم الرحـالة المسلمين أتـــوا من أطراف العـالم العربى ، سواء الأطراف الشرقية أم الغربية ، فمن الاطراف الشرقية نسمع عن ناصرى خسرو الفارسى (توفى ٥٤٢ هـ / ١٠٦٠) الذى ســجل رحلتــه فى كتابه (سفرنامة) (٢) • ونسمع أيضا بالرحـالة الهروى المولود فى هراه ، الذى أقام بالاسكندريه سنة ٥٧٠ هـ / ١١٧٤ م •

وقد ركز فى رحلتــــه على مواضع الزيارة الدينيـــة ، ويقصد بها قبور الاولياء والصالحين (٣) •

اما الرحالة المنطلقون من الطرف الغربى للعالم الاسلامى ، فمنهم ابن جبير الذى انطلق من غرناطة ٥٨٧ هـ / ١١٨٣ م ووصل الاسكندرية ومنها الى قوص وعيذاب فجـده ، وبعد أداء الحج اتجه الى العراق ثم تركه للشام واتجه الى صقلية وعاد الى غرناطة ٥٨١ هـ / ١١٨٥ م ، لكنه ارتحل بعد ذلك للمشرق مرتين ومات بالاسكندرية ٦١٤ هـ / ١٢١٧ م •

---

(١) ترجمة راضيه المترجم السودانى صـــلاح الدين عثمان هاشم •

(٢) ترجمه يحيى الخشـــاب ونشرته مطبعة لجنة التاليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٩٤٥ •

(٣) الهروى ، أبو الحسن على : الاشارات الى معرفة الزيارات • دمشق ، المعهد الفرنسى ، ١٩٥٣ •

ونسمع أيضا عن ابن سعيد الأندلسي الذي وصل الاسكندرية سنة ٦٣٨ هـ / ١٢٤١ م وتنقل بين مدن الشام والعراق ٠

وهناك الرحالة العبدري المنسوب الى عبد الدار وانطلق صوب المشرق من السوس الأقصى حيث استقرت أسرته يومئذ ، وبدأ رحلته سنة ٦٨٨ هـ / ١٢٨٩ م فزار الشمال الافريقي كله ووصل الى الاسكندرية ثم أدى فريضة الحج ، وعاد الى بلاده ٠

وهناك شيخ الرحالة ابن بطوطة ، الذي قضى ثماني وعشرين سنة من حياته يتنقل بين اجزاء العالم ٠ لقد انطلق من طنجة وبعد ان أدى فريضة الحج اتجه الى فارس وشرق أفريقيا ، وزار القرم وحوض الفولجا والقسطنطينية ، وزار في رحلة اخرى خوارزم وبخارى وكردستان وبلاد الأفغان والهند والصين ، ٠٠ وسجل ابن بطوطة مشاهداته في « تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار » ٠

ومن هذا العرض نلاحظ أن معظم الرحالة المسلمين قدموا من جناح العالم الاسلامي الشرقي أو جناحه الغربي ، وكان هدفهم الأول ودافعهم الأساسي هو أداء فريضة الحج ، ونظرا لبعد بلادهم فقد مروا بمناطق كثيرة وشعوب كثيرة ، وهم في طريقهم للديار المصرية ، فزادهم هذا شغفا بالرحلة حتى ان معظمهم بعد أن أدى فريضة الحج ، شغف بالترحال ، فقام برحلة أو اكثر من رحلة بقصد الرحلة نفسها أو شغفا بالترحال ذاته هذه المرة ٠ وهذا أوضح ما يكون عند ابن بطوطة فان كانت رحلته الأولى قد قصد بها أداء فريضة الحج ، فلاشك ان رحلاته الاخرى لم يكن يقصد بها الا تحصيل فوائد السفر من علم ومعاينة وتعرف ٠٠ الخ ٠

اما الرحالة الذين انطلقوا من قلب العالم الاسلامي ذاته فهم أقل عددا ، وربما أقل شهرة ومن هؤلاء ابن فضلان الذي انطلق من بغداد في عهد الخليفة العباسي المقتدر بالله (٢٩٥ ـ ٣٢٠ هـ) واتجه الى بلاد الصقالبة بأمر الخليفة ليكون رئيسا للوفد المرسل لملك هذه البلاد ، ليعلم شعبه

ـ بناء على طلبه ـ حقائق الاسلام • كان ابن فضلان اذن فى مهمة رسمية ، لكن قلبه اليقظ وعقله الواعى جعله يتأمل ويفقه ما يشاهد ، فكانت رحلته المعروفة باسم (رسالة ابن فضلان) (١) •

ورحالتنا عبد اللطيف البغدادى هو ايضا من الرحالة الذين انطلقوا من قلب العالم الاسلامى لا من أطرافه ، فقد ولد فى بغداد ، وعمل فى خدمة صلاح الدين الأيوبى فى الشام وخدمة أولاده فى مصر ، وقد رتبوا له مائة دينار فى الشهر ليتفرغ للعلم •

ونحن نلاحظ أن الرحالة الذين انطلقوا من وسط العالم الاسلامى لم يقوموا برحلات طويلة ، وانما كانوا يزورون بلادا معينة يتوجهون اليها ، فلم يتعد ابن فضلان بلاد الصقالبة ، ولم يتعد البغدادى مصر والشام والحجاز •

واذا رحنا نبحث عن مكان البغدادى بين الرحالة المسلمين من ناحية أسلوب المعالجة ومجال الاهتمام ، وجدنا أن البغدادى حرى به أن نطلق عليه « الرحالة » العالم ، وهو بالفعل ما أطلقه عليه بعض الباحثين (٢) ونحن لانعدم ما يؤكد ذلك فى كثير مما أورده فى رحلته هذه التى بين أيدينا ، فقد انتهز فرصة كثرة الجثث التى ملأت النيل والطرقات والخلاء فى أثناء الشدة أو المجاعة التى ألمت بمصر ، وراح يدرس العظام البشرية عظمة عظمة ويقارن تركيب الجسم البشرى بما ورد فى كتب الأطباء اليونان والعرب ، ليخلص بنتائج مؤداها أن بعض هؤلاء الأطباء قد أخطأوا ، فالمعاينة والمشاهدة ودراسة الواقع أقوى من كل نقولات ، مهما كان مصدر هذه النقولات • وعندما يدرس البغدادى مياه النيل ويسوؤه ما فيه من عفن بسبب عدم جريان الماء لانخفاض مياه النيل ـ يقرر

---

(١) نشرها المجمع العلمى العربى بدمشق سنة ١٩٥٩ بعنوان (رسالة ابن فضلان) •

(٢) منهم نقولا زيادة ، الجغرافية والرحلات عند العرب ، بيروت ، مكتبة المدرسة ودار الكتاب اللبنانى ، ١٩٦٢ •

أن تسخين هذا الماء أو غليه لا يخلصه مما فيه من ضرر لغلبة العفن على الماء . وهو فى هذه الحالة يفضل مياه الآبار .

ومن أقوى الفصول العلمية فى كتابه هذا ما تعلق بنباتات مصر ، ففيه تفاصيل طيبة ، كما يبين قدرة كبيرة على التأمل . كما كتب فصلا طيبا عن الحياة الحيوانية فى مصر ، ومن المهم أن نذكر أن معلومات البغدادى عن الحيوان والنبات والتشريح والغذاء ليست معلومات عرضية يتصيدها القارىء من بين فيض من الكتابات فى مجالات اخرى ، أو يتصيدها من بين استطرادات لا حصر لها ، وانما نجد البغدادى قد رتبها وجعل لها فصولا بعينها . مما يؤكد منحاه العلمى المؤكد ، ولا غرو فهو طبيب مشهور أشير له بالبنان فى الشام ومصر على سواء . والطبيب فى هذا العصر كان بالضرورة عالما بالادوية ، أو انه على نحو أو اخر كان عشابا أو ملما بالأعشاب المفيدة كعلاج .

وقد احتفى مؤرخو العلوم عند العرب بالمنهج العلمى لعدد من العلماء ، من بينهم عبد اللطيف البغدادى ، فيحدثنا جلال مظهر (١) عن ذلك :

« .. ويقدم لنا عبد اللطيف البغدادى فكرة جيدة واضحة عن الاسلوب العلمى الذى اتبعه العرب لايجاد أدلة يؤيدون بها ما يقرأونه فى الكتب . وهذه طريقة تبين الى مدى كبير استقلالهم فى الرأى ووسائلهم العلمية الصحيحة وعدم خضوعهم اجمالا لحجية جالينوس أو غيره . وكان عبد اللطيف البغدادى أول من افصح بجلاء عن أهمية المشاهدة ودقة التحرى أولا ، حتى فيما قال جالينوس .

وفى أقوال عبد اللطيف البغدادى عن التشريح ما يغنى عن هذا وما يثبت لنا بكل جلاء أنه كان أول من انتقد جالينوس نقدا صريحا ، وأظهر خطأه فى التشريح معتمدا على المشاهدة

(١) حضارة الاسلام وأثرها فى الترقى العالمى ، صص ٣٤٥–٣٤٦ .

والحمص . قال : « ومن عجيب ما ساهدناه أن جماعة ممن يتعاطون الطب وصلوا الى كتـــاب فى التشريح فكان يعسر افهامهم وفهمهم لقصور القول عن العيان ، فاخبرنا أن فى المقس تلا عليه رمم كثيرة فخرجنا اليه فراينا تلا من رمم له مسافة طويلة يكاد يكون ترابه أقل من الموتى به ، تحدس ما يظهر منهم للعيان بعشرين الفا فصاعدا ، وهم على طبقات فى قرب العهد وبعده . فشاهدنا من شكل العظام ومفاصلها وكيفية اتصالها وتناسبها وأوضاعها ما افادنا علما لا نستفيده من الكتب ، اما انها سكتت عنها ، أو لا يفى لفظها بالدلالة عليه ، أو يكون ما شاهدناه مخالفا لما قيل فيها ، والحس أقوى فى الدلالة من السمع ، فان جالينوس وان كان فى الدرجة العليا من التحرى والتحفظ فيما يباشره ويحكيه ، فان الحس أصدق منه .

فمن ذلك عظم الفك الأسفل ، فان الكل قد اجمعوا على أنه عظمان بمفصل وثيق عند الحنك . وقولنـــا الكل انما نعنى به هاهنـــا جالينوس وحده ، فانه الذى باشر التشريح بنفسه وجعله دأبه ونصب عينيه وصنف فيه عدة كتب معظمها موجود لدينا والباقى لم يخرج الى لسان العرب .

والذى شاهدناه من حال هذا العضـــو انه عظم واحد ليس فيه مفصل ولا درز أصلا ، واعتبرنا ما شـــاء الله من المرات فى اشخاص كثيرة تزيد على الفى جمجمة باصناف من الاعتبارات فلم نجده الا عظما واحدا من كل ما شاهدناه منه وحكيناه . وكذلك فى أشياء اخـرى غير هذه . ولئن مكنتنا المقادير بالمساعدة وضعنا مقالة فى ذلك نحكى فيها ما شاهدناه وما علمناه ، ثم اعتبرت هذا العظم ايضا بمدافن بوصـــير القديمة المقدم ذكرها فوجدته على ما حكيت ، ليس فيه مفصل ولا درز ، ومن شان الدروز الخفية والمفاصل الوثيقة اذا تقادم عليها الزمان أن تظهر وتتفرق ، وهذا الفك الأسفل لا يوجد فى جميع احواله الا قطعة واحدة » .

أليس هذا هو الاسلوب العلمى الصحيح ؟

مؤلفات البغدادى الأخرى
والمـراجع التى تنـاولته

وصفه الذين ترجموا له بانه من فلاسـفة الاسلام ومن المكثرين فى التصنيف فى الحكمـة وعلـم النفس والطب والتاريخ والبلدان والأدب ، ومن كتبه :

- قوانين البلاغة ٠
- الانصاف بين ابن برى وابن الخشـاب فى كلامهما عن المقامات ٠
- الجامع الكبير فى المنطق الطبيعى والالهى ٠
- الكلمة فى الربوبية ٠
- الحكمة الكلامية ٠
- تهذيب كلام افلاطون ٠
- القياس
- السماع الطبيعى ٠
- غريب الحديث ٠
- المنحنى الجلى فى الحسـاب ٠
- التجريد فى اللغـة ٠
- شرح احاديث ابن ماجه المتعلقة بالطب ٠
- مختصر الحيوان للجاحظ ٠
- كتاب فى النبـات ٠
- رسـالة فى النفس

- رسالة فى العلم الالهى •
- رســـالة فى الماء •
- حقيقة الدواء والغذاء •
- رســـالة فى الحواس •
- رسالة فى النفس والصوت والكلام •
- المدينـــة الفاضلة •
- اللغـــات وكيفية تولدها •
- القـــدر •

وغيرهـــا •

وترجمت له كل كتب التراجم التى تغطى فترة وفاته كابن شاكر الكتبى فى كتاب (فوات الوفيات) والسبكى فى (بغية الوعاه) ، وابن أبى أصيبعة فى (طبقات الأطباء) ٠٠الخ ومن المراجع الحديثة التى كتبها أطباء كتاب (لمحات من التراث الطبى العربى) (١) • وقد آثرنا أن نورد فى هذا الكتـــاب ترجمـــة كاملة للبغدادى من كتـــاب ابن أبى أصيبعة يجدها القارىء بعد هذه الدراسة مباشرة •

---

(١) تأليف د٠ مرسى محمد عرب (استاذ الامراض الباطنية بطب الاسكندرية) الاسكندرية ، منشأة المعارف ، ١٩٧٥ • وقد خصص الفصل الخامس لاضافات العرب لفروع الطب المختلفة •

[من كتاب طبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة]

هو الشيخ الامام الفاضل موفق الدين أبو محمد عبد اللطيف بن يوسف بن محمد بن على بن أبى سعد ويعرف بابن اللباد موصلى الأصل بغدادى المولد . كان مشهورا بالعلوم متحليا بالفضائل مليح العبارة كثير التصنيف وكان متميزا فى النحو واللغة العربية عارفا بعلم الكلام والطب . وكان قد اعتنى كثيرا بصناعة الطب لما كان بدمشق واشتهر بعلمها ، وكان يتردد اليه جماعة من التلاميذ وغيرهم من الأطباء للقراءة عليه . وكان والده قد شغله بسماع الحديث فى صباه من جماعة ، منهم ابن الفتح محمد بن عبد الباقى المعروف بابن البطى وأبو زرعة طاهر بن محمد المقدسى وأبو القاسم يحيى بن ثابت الوكيل وغيرهم . وكان يوسف والد الشيخ موفق الدين مشتغلا بعلم الحديث بارعا فى علوم القرآن والقراءات مجيدا فى المذهب والخلاف والأصولين وكان متطرفا من العلوم العقلية . وكان سليمان عم الشيخ موفق الدين فقيها مجيدا وكان الشيخ موفق الدين عبد الله كثير الاشتغال لا يخلى وقتا من أوقاته من النظر فى الكتب والتصنيف والكتابة . والذى وجدته من خطه أشياء كثيرة جدا، بحيث انه كتب من مصنفاته نسخا متعددة ، وكذلك أيضا

كتب كتبا كثيرة من تصانيف القدماء وكان صــديقا لجــدى وبينهما صحبة آكيدة بالديار المصرية لما كانا بهـا • وكان أبى وعمى يشتغلان عليه بعلم الأدب واشتغل عليه عمى أيضا بكتب آرسـطوطاليس • وكان الشـيخ موفق الدين كثير العناية بها والفهم لمعانيها وأتى الى دمشق من الديار المصرية وأقام بها مدة وكثر انتفاع الناس بعلمـه ورأيتـه لما كان مقيما بدمشق فى آخر مرة أتى اليها وهو شيخ نحيف الجسم ربع القامة حسن الكلام جيد العبارة وكانت مسطرته أبلغ من لفظه وكان رحمه الله ربما تجاوز فى الكلام لكثرة ما يرى فى نفسه ، وكان يستنقص الفضلاء الذين فى زمانه وكثيرا من المتقدمين ، وكان وقوعه كثيرا جـدا فى علماء العجـم ومصنفاتهم ، وخصوصا الشيخ الرئيس ابن سيناء ونظرائه •

(ونقلت) من خطه فى سيرته التى ألفها ما هذا مثاله قال : انى ولدت بدار لجدى فى درب الفالوذج فى سنة سبع وخمسين وخمسمائة وتربيت فى حجر الشـيخ أبى النجيب لا أعرف اللعب واللهو وأكثر زمانى مصروف فى سـمـاع الحديث، وأخذت لى اجازات من شيوخ بغداد وخراسان والشام ومصر • وقال لى والدى يوما قد أسمعتك جميع عوالى بغداد وألحقتك فى الرواية بالشيوخ اللسان• وكنت فى أثناء ذلك أتعلم الخط وأحفظ القرآن والفصيح والمقـامات وديوان المتنبى ونحو ذلك ومختصرا فى الفقه ومختصرا فى النحـو فلما ترعرعت حملنى والدى الى كمال الدين عبد الرحمن الأنبارى ، وكان يومئذ شيخ بغداد وله بوالدى صحبة قديمة أيام التفقه بالنظامية(١) فقرأت عليه خطبة الفصيح فهذر كلاما كثيرا متتابعا لم أفهم منه شيئا ؛ لكن التلاميذ حـوله

(١) المقصود المدرسة النظامية •

يعجبون منه ، ثم قال : أنا أجفو عن تعليم الصبيان احمله الى تلميذى الوجيه الواسطى يقرأ عليه فاذا توسطت حاله قرأ على • وكان الوجيه عند بعض أولاد رئيس الرؤساء وكان رجلا أعمى من أهل الثروة والمروءة فأخذنى بكلتا يديه ، وجعل يعلمنى من أول النهار الى آخره بوجوه كثيرة من التلطف فكنت أحضر حلقته بمسجد الظفرية ويجعل جميع الشروح لى ويخاطبنى بها وفى آخر الأمر أقرأ درسى ويخصنى بشرحه ، ثم يخرج من المسجد فيذاكرنى فى الطريق • فاذا بلغنا منزله أخرج الكتب التى يشتغل بها مع نفسه فأحفظه وأحفظ معه ، ثم يذهب الى الشيخ كمال الدين فيقرأ درسه ويشرح له وأنا أسمع • وتخرجت الى أن صرت أسبقه فى الحفظ والفهم وأصرف أكثر الليل فى الحفظ والتكرار واقمنا على ذلك برهة كلما جاد حفظى وكثر وجاد وفهمى وقوى استنار ذهنى احتد واستقام • وانا الازم الشيخ وشيخ الشيخ وأول ما ابتدأت حفظت اللمع فى ثمانية أشهر أسمع كل يوم شرح اكثرها مما يقرؤه غيرى ، وأنقلب الى بيتى فأطالع شرح الثمانين وشرح الشريف عمر بن حمزة وشرح ابن برهان وكل ما أجد من شروحها وأشرحها لتلاميذ يختصون بى الى أن صرت أتكلم على كل باب كراريس ولا ينفد ما عندى • ثم حفظت أدب الكاتب لابن قتيبة حفظا متقنا، أما النصف الأول ففى شهور وأما تقويم اللسان ففى أربعة عشر يوما لأنه كان أربعة عشر كراسا • ثم حفظت مشكل القرآن له وغريب القرآن له وكل ذلك فى مدة يسيرة ثم انتقلت الى الايضاح لابى على الفارسى فحفظته فى شهور كثيرة ولازمت مطالعة شروحه وتتبعته التتبع التام حتى تبحرت فيه وجمعت ما قال الشراح • وأما التكملة فحفظتها فى أيام يسيرة كل يوم كراسا وطالعت الكتب المبسوطة المختصرات وواظبت على المقتضب

للمبرد وكتاب ابن درستويه ، وفى أثناء ذلك لا أغفل سماع الحديث والتفقه على شيخنا ابن فضلان بدار الذهب وهى مدرسة معلقة بناها فخر الدولة بن المطلب • قال : وللشيخ كمال الدين مائة تصنيف وثلاثون تصنيفا أكثرها فى النحو وبعضها فى الفقه والأصول وفى التصوف والزهد وأتيت على اكثر تصانيفه سماعا وقراءة وحفظا ، وشرع فى تصنيفين كبيرين أحدهما فى اللغة والآخر فى الفقه ولم يتفق له اتمامهما ، وحفظت عليه طائفة من كتاب سيبويه وأكببت على المقتضب فأتقنته • وبعد وفاة الشيخ تجردت لكتاب سيبويه ولشرحه للسيرافى ثم قرأت على ابن عبيدة الكرخى كتبا كثيرة ، منها كتاب الأصول لابن السراج والنسخة فى وقف ابن الخشاب برباط المأمونية ، وقرأت عليه الفرائض والفروض للخطيب التبريزى وهو من خواص تلاميذ ابن الشجرى ، وأما ابن الخشاب فسمعت بقراءته معانى الزجاج (★) وسمعت الحديث المسلسل وهو الراحمون يرحمهم الرحمن ارحموا من فى الأرض يرحمكم من فى السماء •

وقال أيضا موفق الدين البغدادى، ان من مشايخه الذين انتفع بهم كما زعم ولد أمين الدولة بن التلميذ وبالغ فى وصفه وكثر • وهذا لكثرة تعصبه للعراقيين والا فولد أمين الدولة لم يكن بهذه المثابة أو قريبا منها • وقال انه ورد الى بغداد رجل مغربى طوال فى زى التصوف ، له أبهة ولسن مقبول الصورة عليه مسحة الدين وهيئة السياحة ينفعل لصورته من رآه قبل أن يخبره يعرف بابن تاتلى يزعم أنه من أولاد الملثمة (١) خرج من المغرب لما استولى عليها

(١) أى من قبائل الطوارق •

(★) بتشديد الجيم وفتحها •

عبد المؤمن فلما استقر ببغداد اجتمع اليه جماعة من الأكابر والأعيان ، وحضره الرضى القزوينى وشيخ الشيوخ ابن سكينة ، وكنت واحدا ممن حضره فأقرأنى مقدمة حساب ومقدمة ابن بابشاذ فى النحو ، وكان له طريق فى التعليم عجيب ومن يحضره يظن أنه متبحر وانما كان متطرفا ؛ لكنه قد أمعن فى كتب الكيمياء والطلسمات وما يجرى مجراها ، وأتى على كتب جابر بأسرها وعلى كتب ابن وحشية ، وكان يجلب القلوب بصورته ومنطقه وايهامه فملأ قلبى شوقا الى العلوم كلها واجتمع بالامام الناصر لدين الله وأعجبه ثم سافر وأقبلت على الاشتغال وشمرت ذيل الجد والاجتهاد وهجرت النوم واللذات، وأكببت على كتب الغزالى: المقاصد والمعيار والميزان ومحك النظر ثم انتقلت الى كتب ابن سينا صغارها وكبارها وحفظت كتاب النجاة وكتبت الشفاء وبحثت فيه وحصلت كتاب التحصيل لبهمنيار تلميذ ابن سينا وكتبت وحصلت كثيرا من كتب جابر بن حيان الصوفى وابن وحشية وباشرت عمل الصنعة الباطلة وتجارب الضلال الفارغة . وأقوى من أضلنى ابن سينا بكتابه فى الصنعة الذى تمم به فلسفته التى لا تزداد بالتمام الا نقصا .

قال : ولما كان فى سنة خمس وثمانين وخمسمائة حيث لم يبق ببغداد من يأخذ بقلبى ويملأ عينى ويحل ما يشكل على، دخلت الموصل فلم أجد فيها بغيتى لكن وجدت الكمال بن يونس جيدا فى الرياضيات والفقه متطرفا من باقى أجزاء الحكمة قد استغرق عقله ووقته حب الكيمياء وعملها حتى صار يستخف بكل ما عداها . واجتمع الى جماعة كثيرة وعرضت على مناصب فاخترت منها مدرسة ابن مهاجر المعلقة ودار الحديث التى تحتها وأقمت بالموصل سنة فى اشتغال

دائم متواصل ليلا ونهارا • وزعم أهل الموصل أنهم لم يروا من أحد قبلى ما رأوا منى من سعة المحفوظ وسرعة الخاطر وسكون الطائر • وسمعت الناس يهرجون فى حديث الشهاب السهروردى المتفلسف ويعتقدون أنه قد فاق الأولين والآخرين وأن تصانيفه فوق تصانيف القدماء فهممت لقصده ثم أدركنى التوفيق فطلبت من ابن يونس شيئا من تصانيفه وكان أيضا معتقدا فيها فوقعت على التلويحات واللمحة والمعارج فصادفت فيها ما يدل على جهل أهل الزمان ووجدت لى تعاليق كثيرة لا أرتضيها هى خير من كلام هذا الأحمق • وفى أثناء كلامه يثبت حروفا مقطعة يوهم بها أمثاله أنها أسرار الهية •

قال : ولما دخلت دمشق ، وجدت فيها من أعيان بغداد والبلاد ممن جمعهم الاحسان الصلاحى جمعا كثيرا • منهم جمال الدين عبد اللطيف ولد الشيخ أبى النجيب وجماعة بقيت من بيت رئيس الرؤساء وابن طلحة الكاتب، وبيت ابن جهير وابن العطار المقتول الوزير وابن هبيرة الوزير • واجتمعت بالكندى البغدادى النحوى وجرت بيننا مباحثات فأظهرنى الله تعالى عليه فى مسائل كثيرة ، ثم انى أهملت جانبه فكان يتأذى باهمالى له أكثر مما يتأذى الناس منه • وعملت بدمشق تصانيف جمة منها : غريب الحديث الكبير ، جمعت فيه غريب أبى عبيد القاسم بن سلام وغريب ابن قتيبة وغريب الخطابى وكنت ابتدأت به فى الموصل وعملت له مختصرا سميته المجرد ، وعملت كتاب الواضحة فى اعراب الفاتحة نحو عشرين كراسا ، وكتاب الألف واللام ، وكتاب رب ، وكتابا فى الذات والصفات الذاتية الجارية على ألسنة المتكلمين ، وقصدت بهذه المسألة الرد على الكندى • ووجدت بدمشق الشيخ عبد الله بن ناتلى نازلا بالمأذنة الغربية ،

وقد عكف عليه جماعة وتحزب الناس فيه حزبين : له وعليه • فكان الخطيب الدولعى عليه وكان من الأعيان له منزلة وناموس ثم خلط ابن تاتلى على نفسه فأعان عدوه عليه وصار يتكلم فى الكيمياء والفلسفة وكثر التشنيع عليه واجتمعت به فصار يسألنى عن أعمال اعتقد أنها خسيسة نزرة ؛ فيعظمها ويحتفل بها ويكتبها منى وكاشفته فلم أجده كما كان فى نفسى فساء به ظنى وبطريقته ثم باحثته فى العلوم فوجدت عنده منها أطرافا نزرة فقلت له يوما : لو صرفت زمانك الذى ضيعته فى طلب الصنعة الى بعض العلوم الشرعية أو العقلية كنت اليوم فريد عصرك مخدوما طول عمرك وهذا هو الكيمياء لا ما تطلبه • ثم اعتبرت بحاله وانزجرت بسوء مآله • والسعيد من وعظ بغيره فاقلعت لكن لا كل الاقلاع • ثم انه توجه الى صلاح الدين بظاهر عكا يشكو اليه الدولعى ، وعاد مريضا وحمل الى البيمارستان فمات به ، وآخذ كتبه المعتمد شحنة دمشق وكان متيما بالصنعة •

ثم انى توجهت الى زيارة القدس ثم الى صلاح الدين بظاهر عكا فاجتمعت ببهاء الدين شداد قاضى العسكر يومئذ وقد اتصلت به شهرتى بالمرسل فانبسط الى وأقبل على وقال: نجتمع بعماد الدين الكاتب • فقمنا اليه وخيمته الى خيمة بهاء الدين فوجدته يكتب كتابا الى الديوان العزيز بقلم الثلث من غير مسودة • وقال : هذا كتاب الى بلدكم • وذاكرنى فى مسائل من علم الكلام ، وقال : قوموا بنا الى القاضى الفاضل، فدخلنا عليه • فرأيت شيخا ضئيلا كله رأس وقلب وهو يكتب ويملى على اثنين ووجهه وشفتاه تلعب الوان الحركات لقوة حرصه فى اخراج الكلام كأنه يكتب بجملة أعضائه • وسألنى القاضى الفاضل عن قوله سبحانه تعالى : « **حتى اذا**

جاءوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها » ، أين جواب اذا ؟ وأين جواب لو فى قوله تعالى : « **ولو أن قرآنا سيرت به الجبال** » ؟ وعن مسائل كثيرة ومع هذا فلا يقطع الكتابة والاملاء وقال لى : ترجع الى دمشق وتجرى عليك الجرايات ، فقلت : أريد مصر ، فقال : السلطان مشغول القلب بأخذ الفرنج عكا وقتل المسلمين بها • فقلت : لابد لى من مصر ؛ فكتب لى ورقة صغيرة الى وكيله بها فلما دخلت القاهرة جاءنى وكيله وهو ابن سناء الملك ، وكان شيخا جليل القدر نافذ الأمر فأنزلنى دارا قد أزيحت عللها وجاءنى بدنانير وغلة • ثم مضى الى أرباب الدولة وقال: هذا ضيف القاضى الفاضل ، فدرت الهدايا والصلات من كل جانب • وكانت كل عشرة أيام أو نحوها تصل تذكرة القاضى الفاضل الى ديوان مصر بمهمات الدولة وفيها فصل يؤكد الوصية فى حقى وأقمت بمسجد الحاجب رحمه الله أقرىء الناس وكان قصدى فى مصر ثلاث أنفس : ياسين السيميائى ، والرئيس موسى بن ميمون اليهودى ، وأبو القاسم الشارعى • وكلهم جاءونى • أما ياسين فوجدته محاليا كذابا مشعبذا ، يشهد للشاقانى بالكيمياء ويشهد له الشاقانى بالسيمياء ويقول عنه انه يعمل أعمالا يعجز موسى بن عمران عنها ، وانه يحضر الذهب المضروب متى شاء وبأى مقدار شاء وبأية سكة شاء وانه يجعل ماء النيل خيمة يجلس فيها وأصحابه تحتها • وكان ضعيف الحال • وجاءنى موسى فوجدته فاضلا فى الغاية ، قد غلب عليه حب الرياسة وخدمة أرباب الدنيا وعمل كتابا فى الطب جمعه من الستة عشر لجالينوس ومن خمسة كتب أخرى وشرط أن لا يغير فيه حرفا الا أن يكون واو عطف أو فاء وصل وانما ينقل فصولا يختارها • وعمل كتابا لليهود

سماه كتاب الدلالة ولعن من يكتبه بغير القلم العبرانى ووقفت
عليه فوجدته كتاب سوء يفصل أصول الشرائع والعقائد بما
يظن أنه يصلحها • وكنت ذات يوم بالمسجد وعندى جمع
كثير فدخل شيخ رث الثياب نير الطلعة مقبول الصورة فهابه
الجمع ورفعوه فوقهم وأخذت فى اتمام كلامى فلما تصرم
المجلس جاءنى امام المسجد وقال : أتعرف هذا الشيخ ؟ هذا
أبو القاسم الشارعى فاعتنقته وقلت : اياك أطلب ، فأخذته
الى منزلى وأكلنا الطعام وتفاوضنا الحديث فوجدته كماتشتهى
الأنفس وتلذ الأعين سيرته سيرةالحكماء العقلاء وكذا صورته
قد رضى من الدنيا ببرض لا يتعلق منها بشىء يشغله عن طلب
الفضيلة • ثم لازمنى فوجدته قيما بكتب (★) القدماء وكتب
أبى نصر الفارابى ، ولم يكن لى اعتقاد فى أحد من هؤلاء ؛
لأنى كنت أظن أن الحكمة كلها حازها ابن سينا وحشاها كتبه
واذا تفاوضنا الحديث أغلبه بقوة الجدل وفضل اللسن
ويغلبنى بقوة الحجة وظهور المحجة • وأنا لا تلين قناتى
لغمزه ولا أحيد عن جادة الهوى والتعصب برمزه ، فصار
يحضرنى شيئا بعد شىء من كتب أبى نصر والاسكندر
وثامسطيوس يؤنس بذلك نفارى ويلين عريكة شماسى حتى
عطفت عليه أقدم رجلا وأؤخر أخرى• وشاع أن صلاح الدين
هادن الفرنج وعاد الى القدس فقادت الضرورة الى التوجه اليه
فأخذت من كتب القدماء ما أمكننى وتوجهت الى القدس ،
فرأيت ملكا عظيما يملأ العين روعة والقلوب محبة قريبا
بعيدا سهلا مجيبا وأصحابه يتشبهون به ، يتسابقون الى
المعروف كما قال تعالى : «**ونزعنا ما فى صدورهم من غل**»•
وأول ليل حضرته وجدت مجلسا حفلا بأهل يتذاكرون فى
أصناف العلوم وهو يحسن الاجتماع والمشاركة ويأخذ فى

(★) قيم الكتب بمثابة أمين المكتبة •

كيفية بناء الأسوار وحفر الخنادق ويتفقه فى ذلك ويأتى
بكل معنى بديع · وكان مهتما فى بناء سور القـدس وحفر
خندقه يتولى ذلك بنفسه وينقل الأحجار على عاتقه ويتأسى
به جميع الناس : الفقهاء والأغنيـاء والأقوياء والضعفاء
حتى العماد الكاتب والقاضى الفاضل · ويركب لذلك قبـل
طلوع الشـمس الى وقت الظهر يأتى داره ويمـد الطعـام
ثم يسـتريح ويركب العصر ويرجع فى المشـارع ويصرف
اكثر الليل فى تدبير ما يعمل نهارا · فكتب لى صلاح الدين
بثلاثين دينارا فى كل شـهر عـلى ديوان الجـامع بدمشـق
وأطلق أولاده رواتب حتى تقرر لى فى كل شهر مائة دينار،
ورجعت الى دمشـق واكببت عـلى الاشتغال واقراء النـاس
بالجـامع ، وكلمـا أمعنت فى كتب القـدماء ازددت فيهـا
رغبـة وفى كتب ابن سـينا زهادة واطلعت عـلى بطـلان
الكيمياء ، وعرفت حقيقة الحال فى وضـعها ومن وضـعها
وتكذب بهـا وما كان قصـده فى ذلك وخلصت من ضلالين
عظيمين موبقين وتضاعف شكرى لله سـبحانه وتعالى عـلى
ذلك، فان أكثر الناس انما هلكوا بكتب ابن سينا وبالكيمياء
ثم ان صلاح الدين دخل دمشق وخرج يودع الحاج ثم رجـع
فحم ففصده من لا خبرة عنده ؛ فخارت القوة ومات قبل الرابع
عشر ووجد الناس عليه شبيها بما يجدونه على الأنبياء وما
رأيت ملكا حزن الناس بموته سواه ؛ لأنه كان محبوبا يحبه
البر والفاجر والمسلم والكافر · ثم تفرق أولاده وأصحابه
أيادى سبأ ومزقوا فى البلاد كل ممزق أكثرهم توجه الى مصر
لخصبها وسـعة صدر ملكها ، وأقمت بدمشـق وملكها الملك
الأفضل وهو أكبر الأولاد فى السن الى أن جاء الملك العزيز
بعساكر مصر يحاصر أخاه بدمشق فلم ينل منه بغية · ثم

تأخر الى مرج الصفرلة (★) وعرض له لنج فخرجت اليه بعد خلاصه منه، فأذن لى فى الرحيل معه وأجرى على من بيت المال كفايتى وزيادة وأقمت مع الشيخ أبى القاسم يلازمنى صباح مساء الى آن قضى نحبه . ولما اشتد مرضه وكان ذات الجنب عن نزلة من رأسه أشرت عليه بدواء فأنشد :

لا أذود الطير عن شجر قد بلوت المر من ثمره

ثم سألته عن ألمه ، فقال : ما لجرح بميت ايلام .

وكانت سيرتى فى هذه المدة أنى أقرىء الناس بالجامع الأزهر من أول النهار الى نحو الساعة الرابعة ووسط النهار يأتى من يقرأ الطب وغيره وآخر النهار أرجع الى الجامع الأزهر فيقرأ قوم آخرون وفى الليل أشتغل مع نفسى ولم آزل على ذلك الى أن توفى الملك العزيز ، وكان شابا كريما شجاعا كثير الحياء لا يحسن قول لا وكان مع حداثة سنه وشره شبابه كامل العفة عن الأموال والفروج .

(أقول) : ثم ان الشيخ موفق الدين أقام بالقاهرة بعد ذلك مدة وله الراتب والجرايات من أولاد الملك الناصر صلاح الدين وأتى الى مصر ذلك الغلاء العظيم والموتان الذى لم يشاهد مثله . وألف الشيخ موفق الدين فى ذلك كتابا ذكر فيه أشياء شاهدها أو سمعها ممن عاينها تذهل العقل وسمى ذلك الكتاب كتاب « الافادة والاعتبار فى الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر » ، ثم لما ملك السلطان الملك العادل سيف الدين أبو بكر بن أيوب الديار المصرية وأكثر الشام والشرق وتفرقت أولاد أخيه الملك الناصر صلاح الدين وانتزع ملكهم، توجه الشيخ موفق الدين الى القدس وأقام بها مدة وكان يتردد الى الجامع الأقصى ، ويشتغل الناس عليه بكثير من العلوم وصنف هنالك كتبا كثيرة . ثم انه توجه الى

(★) كذا بالنص .

دمشق ونزل بالمدرسة العزيزية بها وذلك فى سنة أربع وستمائة ، وشرع فى التدريس والاشتغال وكان يأتيه خلق كثير يشتغلون عليه ويقرءون أصنافا من العلوم ، وتميز فى صناعة الطب بدمشق وصنف فى هذا الفن كتبا كثيرة وعرف به . وأما قبل ذلك فانما كانت شهرته بعلم النحو . وأقام بدمشق مدة وانتفع الناس به ، ثم انه سافر الى حلب وقصد بلاد الروم وأقام بها سنين كثيرة وكان فى خدمة الملك علاء الدين داود بن بهرام صاحب ارزنجان . وكان مكينا عنده عظيم المنزلة وله منه الجامكية الوافرة والافتقادات الكثيرة وصنف باسمه عدة كتب . وكان هذا الملك عالى الهمة كثير الحياء كريم النفس ، وقد اشتغل بشىء من العلوم ولم يزل فى خدمته الى أن استولى على ملكه صاحب ارزن الروم ، وهو السلطان كيقباذ بن كيخسرو بن قلج أرسلان ثم قبض على صاحب أرزنجان ولم يظهر له خبر .

(قال) الشيخ موفق الدين عبد اللطيف : ولما كان فى سابع عشر ذى القعدة من سنة خمس وعشرين وستمائة توجهت الى آرزن الروم وفى حادى عشر صفر من سنة ست وعشرين وستمائة رجعت الى أرزنجان من أرزن الروم وفى نصف ربيع الأول توجهت الى كماخ وفى جمادى الأولى توجهت منها الى دبركى ، وفى رجب توجهت منها الى ملطية وفى آخر رمضان توجهت الى حلب ، وصلينا صلاة عيد الفطر بالبهنساء ودخلنا حلب يوم الجمعة تاسع شوال فوجدناها قد تضاعفت عمارتها وخيرها وأمنها بحسن سيرة آتابك شهاب الدين واجتمع الناس على محبته لمعدلته فى رعيته .

(أقول) : وأقام الشيخ موفق الدين بحلب والناس يشتغلون عليه وكثرت تصانيفه ، وكان له من شهاب الدين

طغريل الخادم أتابك حلب جار حسن وهو متفرغ لتدريس صناعة الطب وغيرها ويتردد الى الجامع بحلب ليسمع الحديث ويقرىء العربية . وكان دائم الاشتغال ملازما للكتابة والتصنيف ولما أقام بحلب قصدت أن أتوجه اليه وأجتمع اليه وأجتمع به ، فلم يتفق ذلك وكانت كتبه أبدا تصل الينا ومراسلاته ، وبعث الى أشياء من تصانيفه من خطه .

(وهذه) نسخة كتاب كتبته اليه لما كان بحلب : المملوك بواصل بدعائه وثنائه وشكره وانتمائه الى عبودية المجلس السامى المولوى السيدى السندى الأجلى الكبيرى العالمى الفاضلى موفق الدين سيد العلماء فى الغابرين والحاضرين جامع العلوم المتفرقة فى العالمين ولى أمير المؤمنين أوضح الله به سبل الهداية وآنار ببقائه طرق الدراية وحقق بحقائق ألفاظه صحيح الولاية ، ولازالت سعادته دائمة البقاء وسيادته سامية الارتقاء وتصانيفه فى الآفاق قدوة العلماء وعمدة سائر الأدباء والحكماء . المملوك يجدد الخدمة ويهدى من السلام أطيبه ومن الشكر والثناء أعذبه ، وينهى ما يكابده من أليم التطلع الى مشاهدة أنوار شمسه المنيرة ، وما يعانيه من الارتياح الى ملاحظة شريف حضرته الأثيرة وما تزايد من القلق وتعاظم عند سماعه قرب المزار من الأرق :

وأبرح ما يكون الشوق يوما اذا دنت الديار من الديار

ولولا أمل قفول الركاب العالى ووصول الجناب الموفقى الجلالى، لسارع المملوك الى الوصول ، ولبادر المبادرة بالمثول، ولجاء الى شريف خدمته وفاز بالنظر الى بهى طلعته . فيا سعادة من فاز بالنظر اليه ويا بشرى من مثل بين يديه ويا سرور من حظى بوجه اقباله عليه ، ومن ورد بحار فضله

من نميرها واستضاء بشمس علمه فسرى فى ضياء منيرها نسأل الله تعالى تقريب الاجتماع وتحصيل الجمع بين مسرتى الابصار والاسماع بمنه وكرمه ان شاء الله تعالى ٠

(ومن مراسلات) الشيخ موفق الدين عبد اللطيف أنه بعث الى أبى فى أول كتاب وهو يقول فيه عنى : ولد الولد أعز من الولد وهذا موفق الدين ولد ولدى وأعز الناس عندى ومازالت النجابة تتبين لى فيه من الصغر ٠ ووصف وأثنى كثيرا ٠ وقال فيه : ولو أمكننى أن آتى اليه بالقصد ليشتغل على لفعلت ٠ وبالجملة ، فانه قد عزم أن يأتى الى دمشق ويقيم بها ثم خطر له أنه قبل ذلك يحج ويجعل طريقه على بغداد ، وآن يقدم بها للخليفة المستنصر بالله أشياء من تصانيفه ولما وصل بغداد مرض فى أثناء ذلك وتوفاه رحمه الله يوم الأحد ثانى عشر المحرم سنة تسع وعشرين وستمائة ٠ ودفن بالوردية عند أبيه ، وذلك بعد أن خرج من بغداد وبقى غائبا عنها خمسا وأربعين سنة ، ثم ان الله تعالى ساقه اليها وقضى منيته بها ٠

(ومن) كلام موفق الدين عبد اللطيف البغدادى مما نقلته من خطه قال : ينبغى أن تحاسب نفسك كل ليلة اذا أويت الى منامك وتنظر ما كسبت فى يومك من حسنة فتشكر الله عليها ، وما اكتسبت من سيئة فتستغفر الله منها وترتب فى نفسك مما تعمله فى غدك من الحسنات وتسأل الله الاعانة على ذلك ٠ وقال : أوصيك أن لا تأخذ العلوم من الكتب وان وثقت من نفسك بقوة الفهم ، وعليك بالأستاذين فى كل علم تطلب اكتسابه ولو كان الأستاذ ناقصا فخذ عنه ما عنده حتى تجد أكمل منه وعليك بتعظيمه وتوقيره ، وان قدرت أن تفيده من دنياك فافعل والا فبلسانك وثنائك واذا قرأت كتابا ، فاحرص كل الحرص على أن تستظهره وتملك معناه وتوهم

أن الكتاب قد عدم وأنك مستغن عنه لا تحزن لفقده ، واذا كنت مكبا على دراسة كتاب وتفهمه فاياك أن تشتغل بآخر معه واصرف الزمان الذى تريد صرفه فى غيره اليك واياك أن تشتغل بعلمين دفعة واحدة وواظب على العلم الواحد سنة أو سنتين أو ماشاءالله ، فاذا قضيت منه وطرك فانتقل الى علم آخر ولا تظن أنك اذا حصلت علما فقد اكتفيت ، بل تحتاج الى مراعاته لينمى ولا ينقص ومراعاته تكون بالمذاكرة والتفكر واشتغال المبتدىء بالتحفظ والتعلم ومباحثة الأقران واشتغال العالم بالتعليم والتصنيف ، واذا تصديت لتعليم علم أو للمناظرة فيه فلا تمزج به غيره من العلوم فان كل علم مكتف بنفسه مستغن عن غيره ، فان استعانتك فى علم بعلم عجز عن استيفاء أقسامه . وكمن يستعين بلغة أخرى اذا ضاقت عليه أو جهل بعضها قال : وينبغى للانسان أن يقرأ التواريخ وأن يطلع على السير وتجارب الأمم فيصير بذلك كأنه فى عمره القصير قد أدرك الأمم الخالية وعاصرهم وعاشرهم وعرف خيرهم وشرهم . قال : وينبغى أن تكون سيرتك سيرة الصدر الأول فاقرأ سيرة النبى ﷺ ، وتتبع أفعاله وأحواله واقتف آثاره وتشبه به ما أمكنك وبقدر طاقتك واذا وقفت على سيرته فى مطعمه ومشربه وملبسه ومنامه ويقظته وتمرضه وتطببه وتمتعه وتطيبه ومعاملته مع ربه ومع أزواجه وأصحابه وأعدائه وفعلت اليسير من ذلك فأنت السعيد كل السعيد . قال : وينبغى أن تكثر اتهامك لنفسك ولا تحسن الظن بها وتعرض خواطرك على العلماء وعلى تصانيفهم وتتثبت ولا تعجل ولا تعجب فمع العجب العثار ومع الاستبداد الزلل ومن لم يعرق جبينه الى أبواب العلماء ، لم يعرق فى الفضيلة ومن لم يبجلوه ، لم يبجله الناس ومن لم يبكتوه ، لم يسود ومن لم يحتمل ألم التعلم ،

لم يذق لذة العلم ومن لم يكدح ، لـم يفلح واذا خلـوت من التعلم والتفكر ؛ فحرك لسانك بذكر الله وبتسابيحه وخاصة عند النوم فيتشربه لبك ويتعجن فى خيـالك وتتـكلم به فى منامك واذا حدث لك فرح وسرور ببعض أمور الدنيا ؛ فاذكر الموت وسرعة الزوال وأصناف المنغصات واذا أحزنك أمر ، فاسترجع واذا اعترتك غفلة ؛ فاستغفر واجعل الموت نصب عينك والعلم والتقى زادك الى الآخـرة واذا أردت أن تعصى الله ، فاطلب مكانا لا يراك فيه • واعلم أن الناس عيون الله على العبد يريهم خيره وان أخفاه ، وشره وان ستره فباطنه مكشوف لله والله يكشفه لعباده فعليك أن تجعل باطنك خيرا من ظاهرك وسرك أصح من علانيتك ولا تتألم اذا أعرضت عنك الدنيا فلو عرضت لك ، لشغلتك عن كسب الفضائل • وقلما يتعمق فى العلم ذو الثروة الا أن يكون شريف الهمـة جدا أو أن يثرى بعد تحصيل العلم ، وانى لا أقول ان الدنيا تعرض عن طالب العلم بل هو الذى يعرض عنها ، لأن همته مصروفة الى العلم فلا يبقى له التفات الى الدنيا والدنيا انما تحصل بحرص وفكر فى وجوهها فاذا غفـل عن اسـبابها لم تأته • وأيضـا فان طالب العلم تشرف نفسـه عن الصنائع الرذلة والمكاسب الدنية وعن أصناف التجارات وعن التذلل لأرباب الدنيا والوقوف على أبوابهم ولبعض اخـواننا بيت شـعر :

من جد فى طلب العلوم أفاته   شرف العلوم دناءة التحصيل

وجميع طرق مكاسب الدنيا تحتاج الى فراغ لها وحذق فيها وصرف الزمان اليها والمشتغل بالعلم لا يسعه شىء من ذلك ، وانما ينتظر أن تأتيه الدنيا بلا سبب وتطلبه من غير أن يطلبها طلب مثلها وهذا ظلم منه وعدوان ولكن اذا تمكن

الرجل فى العلم وشهر به خطب من كل جهة وعرضت عليه المناصب وجاءته الدنيا صاغرة ، وأخذها وماء وجهه موفور وعرضه ودينه مصون ، واعلم أن للعلم عبقة وعرفا ينادى على صاحبه ونورا وضياء يشرق عليه ويدل عليه كتاجر المسك لا يخفى مكانه ولا تجهل بضاعته ولكن يمشى بمشعل فى ليل مدلهم • والعالم مع هذا محبوب أينما كان وكيفما كان لا يجد الا من يميل اليه ويؤثر قربه ويأنس به ويرتاح بمداناته واعلم أن العلوم تغور ثم تفور ، تفور فى زمان وتغور فى زمان • بمنزلة النبات أو عيون المياه وتنتقل من قوم الى قوم ومن صقع الى صقع • (ومن) كلامه أيضا نقلته من خطه قال : اجعل كلامك فى الغالب بصفات أن يكون وجيزا فصيحا فى معنى مهم أو مستحسن فيه الغاز ما وايهام كثير أو قليل ولا تجعله مهملا ككلام الجمهور بل رفعه عنهم ولا تباعده عليهم جدا • وقال : اياك والهذر والكلام فيما لا يعنى ، واياك والسكوت فى محل الحاجة ورجوع النوبة اليك اما لاستخراج حق أو اجتلاب مودة أو تنبيه على فضيلة واياك والضحك مع كلامك وكثرة الكلام وتبتير الكلام بل اجعل كلامك سردا بسكوت بحيث يستشعر منك أن وراءه أكثر منه وانه عن خميرة سابقة ونظر متقدم • وقال : اياك والغلظة فى الخطاب والجفاء فى المناظرة ، فان ذلك يذهب ببهجة الكلام ويسقط فائدته ويعدم حلاوته ويجلب الضغائن ويمحق المودات ويصير القائل مستثقلا سكوته أشهى الى السامع من كلامه ويثير النفوس على معاندته ويبسط الألسن بمخاشنته واذهاب حرمته • وقال : لا ترتفع بحيث تستثقل ولا تتنازل حيث تستخس وتستحقر • وقال : اجعل كلامك كله جزلا ، وأجب من حيث تعقل لا من حيث تعتاد وتألف • وقال : انتزح عن عادات الصبا وتجرد عن مألوفات الطبيعة

واجعل كلامك لاهوتيا فى الغالب لا ينفك من خبر أو قرآن أو قول حكيم أو بيت نادر أو مثل سائر . وقال : تجنب الوقيعة فى الناس وثلب الملوك والغلظة على المعاشرة وكثرة الغضب وتجاوز الحد فيه . وقال : استكثر من حفظ الأشعار الأمثالية والنوادر الحكمية والمعانى المستغربة . (ومن) دعائه رحمه الله قال : اللهم أعذنا من شموس الطبيعة وجموح النفس الردية وسلس لنا مقادا لتوفيق ، وخذ بنا فى سواء الطريق يا هادى العمى يا مرشد الضلال يا محيى القلوب الميتة بالايمان يا منير ظلمة الضلالة بنور الانقاذ خذ بأيدينا من مهواة الهلكة نجنا من ردغة الطبيعة طهرنا من درن الدنيا الدنية بالاخلاص لك والتقوى انك مالك الآخرة والدنيا .

متن كتاب

الإفادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر

الفصل الأول

فى خواص مصر العامة

ان أرض مصر من البلاد العجيبة الآثار ، الغريبة الأخبار . وهى واد يكتنفه جبلان شرقى وغربى . والشرقى أعظمهما . يبتديان من أسوان ويتقاربان باسنا(١) حتى يكادا يتماسان ثم ينفرجان قليلا قليلا . وكلما امتدا طولا انفرجا عرضا حتى اذا حاذيا الفسطاط كان بينهما مسافة يوم فما دونه . ثم يتباعدان آكثر من ذلك والنيل ينساب بينهما ويتشعب بأسافل الأرض وجميع شعبه تصب فى البحر المالح (٢) .

وهذا النيل له خاصتان : الأولى ــ بعد مرماه . فانا لا نعلم فى المعمورة نهرا آبعد مسافة منه ؛ لأن مباديه عيون

(١) اسنا الحالية وهى من المدن القديمة ، وكان اسمها المقدس هو هات خونومو Hat Khounoumou ويعنى قصر الاله خنومو . واسمها القبطى سنى Seni أو سنا Sna أو استى Esni ومنه اسمها العربى : اسنا وسماها الرومان لاتوبولس Latopolis ، وهى غربى النيل ، وأشار اليها الأسعد بن مماتى فى كتابه قوانين الدواوين باعتبارها من أعمال قوص . القاموس الجغرافى لمحمد رمزى ج ٤ من القسم الثانى ، ص ١٥١ـ١٥٢ .

(٢) المقصود بأسافل الأرض منطقة الدلتا ، وقد استخدم المؤلف هذا التعبير للدلالة على الدلتا فى اكثر من موضع من كتابه ، ويفهم من التعبير انه كان للنيل اكثر من فرعين فى اواخر القرن السادس للهجرة (الثانى عشر للميلاد) .

تأتى من جبل القمر وزعموا أن هذا الجبل وراء خط الاستواء باحدى عشرة درجة • وعرض أسوان وهى مبدأ أرض مصر اثنتان وعشرون درجة ونصف درجة • وعرض دمياط وهى اقصى أرض مصر احدى وثلاثون درجة وثلث درجة • فتكون مسافة النيل على خط مستقيم ثلاثا واربعين درجة تنقص سدسا ومساحة ذلك تقريبا تسعمائة فرسخ ، هذا سوى ما يأخذ من التعريج والتوريب فان اعتبر ذلك تضاعفت المساحة جدا •

والخاصة الثانية ــ أنه يزيد عند نضوب سائر الأنهار ونشيش (٣) المياه : لأنه يبتدىء بالزيادة عند انتهاء طول النهار وتتناهى زيادته عند الاعتدال الخريفى وحينئذ تفتح الترع وتفيض على الأراضى • وعلة ذلك أن مواد زيادته أمطار غزيرة دائمة وسيول متواصلة تمده فىهذا الأوان فان أمطار الاقليم الأول والثانى انما تغزر فى الصيف والقيظ •

وأما أرض مصر فلها أيضا خواص منها أنه لا يقع بها مطر الا ما لا احتفال به(٤) وخصوصا صعيدها، فأما أسافلها فقد يقع بها مطر جود لكنه لا يفى بحاجة الزراعة • وأما دمياط والاسكندرية وما داناهما فهى غزيرة المطر ومنه يشربون وليس بأرض مصر عين ولا نهر سوى نيلها •

ومنها أن أرضها رملية لا تصلح للزراعة ؛ لكنه يأتيها

---

(٣) نشيش المياه جفافها ، وفى لسان العرب لابن منظور : « نش الغدير والحوض ينش نشا ونشيشا . يبس ماؤها ونضب ، وقيل، نش الماء على وجه الأرض نشف وجف ونش الرطب وذوى أى ذهب ماؤه ··· » ولعل ارتباط قلة العمل أو انعدامه فى العامية المصرية بتعبير « النش » راجع لهذا ، فاذا خفت المياه فلا زراعة ولا عمل وجلس الفلاح « ينش » ولا علاقة لذلك بنش الذباب أو غيره وانما لهذه الكلمة العامية كما اتضح الآن أصل صحيح وظروف تاريخية وجغرافية •

(٤) لا احتفال به تعبير يفيد أنه ــ أى المطر ــ قليل •

طين آسود علك(٥) فيه دسومة كثيرة يسمى الابليز يأتيها من بلاد السودان مختلطا بماء النيل عند مده فيستقر الطين وينضب الماء فيحرث ويزرع • وكل سنة يأتيها طين جديد ؛ ولهذا يزرع جميع أراضيها ولا يراح شىء منها كما يفعل فى العراق والشام لكنها يخالف عليها الأصناف • وقد لحظت العرب ذلك فانها تقول : اذا كثرت الرياح جادت الحراثة ؛ لأنها تجىء بتراب غريب ، وتقول أيضا : اذا كثرت المؤتفكات (٦) زكا الزرع • ولهذه العلة تكون أرض الصعيد زكية كثيرة الأتاء والريع اذا كانت أقرب الى المبدأ فيحصل فيها من هذا الطين مقدار كثير بخلاف أسفل الارض فانها أسافة مضوية اذ كانت رقيقة ضعيفة الطين ؛ لأنه يأتيها الماء وقد راق وصفا ولا أعرف شبيها بذلك الا ما حكى لى عن بعض جبال الاقليم الأول أن الرياح تأتيه وقت الزراعة بتراب كثير ثم يقع عليه المطر فيتلبد فيحرث ويزرع فاذا حصد ؛ جاءته رياح أخرى فنسفته حتى يعود أجرد كما كان آولا • ومنها أن الفصول بها متغيرة عن طبيعتها التى لها فان آخص الأوقات باليبس فى سائر البلاد أعنى الصيف والخريف تكثر فيه الرطوبة بمصر بمد نيلها وفيضه لآنه يمد فى الصيف ويطبق الأرض فى الخريف •

---

(٥) فى لسان العرب « شىء علك بفتح العين وكسر اللام أى لزج ، وعلك الشىء يعلكه علكا أى مضغه حتى صيره لزجا » ، وقد ورد الفعل لدى الشعراء الجاهليين ومن ذلك قول النابغة الذبيانى :

خيل صيام وخيل غير صائمة
تحت العجاج ، وأخرى تعلك اللجما

ولازالت الكلمة مستخدمة فى العامية الشامية بمعنى اللبان وهو الشىء الممضوغ المعروف اذ يسمونه علكة •

(٦) المؤتفكات : الرياح التى تقلب الارض ، والمؤتفكات ايضا الرياح التى تختلف مهابها • تقول العرب . اذا كثرت المؤتفكات زكت الأرض أى زكا زرعها •

فأما سائر البلاد فان مياهها تنش فى هذا الأوان وتغزر فى آخص الأوقات بالرطوبة ــ أعنى الشتاء والربيع ــ ومصر اذ ذاك تكون فى غاية القحولة واليبس ولهذه العلة تكثر عفوناتها واختلاف هوائها وتغلب على آهلها الأمراض العفنية الحادثة عن آخلاط صفراوية وبلغمية ، وقلما تجد فيهم آمراضا صفراوية خالصة ، بل الغالب عليها البلغم حتى فى الشباب والمحرورين ٠ وكثيرا مايكون مع الصفراخام٠ وآكثر آمراضهم فى آخر الخريف وأول الشتاء لكنها يغلب عليها حميد العاقبة وتقل فيهم الأمراض الحادة والدموية الوحية ، وآما آصحاؤهم فيغلب عليهم الترهل والكسل وشحوب اللون وكمودته وقلما ترى فيهم مشبوب اللون ظاهر الدم ، وأما صبيانهم فضاوون يغلب عليهم الدمامة وقلة النضارة وانما تحدث لهم البدانة والقسامة غالبا بعد العشرين ٠

وأما ذكاؤهم وتوقد أذهانهم وخفة حركاتهم فلحرارة بلدهم الذاتية لأن رطوبته عرضية ٠ ولهذا كان أهل الصعيد آفحل جسوما وأجف أمزجة والغالب عليهم السمرة وكان ساكنو الفسطاط الى دمياط أرطب آبدانا والغالب عليهم البياض ٠ ولما رأى قدماء المصريين أن عمارة أرضهم انما هى بنيلها جعلوا أول سنتهم أول الخريف وذلك عند بلوغ النيل الغاية القصوى من الزيادة ٠

ومنها آن الصبا(٧) محجوبة عنهم بجبلها الشرقى المسمى المقطم، فانه يستر عنها هذه الريح الفاضلة وقلما تهب عليهم

---

(٧) الصبا ريح معروفة تقابل الدبور ، وفى الصحاح : الصبا ريح ومهبها المستوى أن تهب من موضع مطلع الشمس اذا استوى الليل والنهار ٠ عن لسان العرب لابن منظور / مادة : ص٠ب٠و ٠

خالصة اللهم الا نكبا. ولهذا اختار قدماءالمصريين أن يجعلوا مستقر الملك منف ونحوها مما يبعد عن هذا الجبل الشرقى الى الغربى واختار الروم الاسكندرية وتجنبوا موضع الفسطاط؛ لقربه من المقطم فان الجبل يستر عما فى لحفه أكثر مما يستر عما بعد منه . ثم ان الشمس يتأخر طلوعها عليهم فيقل فى هوائهم النضج ويبقى زمانا على نهوة الليل؛ ولذلك تجد المواضع المنكشفة للصبا من أرض مصر أحسن حالا من غيرها ولكثرة رطوبتها يتسارع العفن اليها ، ويكثر فيها الفار ويتولد من الطين والعقارب وتكثر بقوص (٨) كثيرا ما تقتل بلبسها والبق المنتن والذباب والبراغيث تدوم زمانا طويلا .

ومنها أن الجنوب اذا هبت عندهم فى الشتاء والربيع وفيما بعد ذلك كانت باردة جدا ويسمونها المريسى (٩) لمرورها على أرض المريس وهى من بلاد السودان . وسبب بردها مرورها على برك ونقائع . والدليل على صحة ذلك انها اذا دامت أياما متوالية عادت الى حرارتها الطبيعية واسخنت الهواء وأحدثت فيه يبسا .

(٨) قوص ، من النواحى القديمة واسمها الأصلى قمولة ، والقبطى Kamouli غرب النيل ، ومن قراها القديمة الحراجيه ، والشعرانى والمسيد والمفرجية وجراجوس ودنفيق وشنهور وطوخ وعباسة . عن القاموس الجغرافى للبلاد المصرية لمحمد رمزى ق ٢ / ج ٤ / ١٨٣ ـ ١٩١ .

(٩) هناك ايضا مناطق وقرى فى مصر يطلق عليها اسم المريس ، ومن ذلك قرية بهذا الاسم تابعة للأقصر وهى من القرى القديمة . القاموس الجغرافى للبلاد المصرية لمحمد رمزى ق٢ / ج٤ / ص ١٦٣ .

الفصل الثاني

فيما تختص به من النبات

من ذلك البامية (١) وهى ثمر بقدر ابهام اليد كأنه جرأ (٢) القثاء شديد الخضرة ، الا أن عليه زيبر (٣) مشوكا وهو مخمس الشكل يحيط به خمسة أضلاع فاذا شق انشق عن خمسة أبيات بينها حواجز • وفى تلك الأبيات حب مصطف مستدير أبيض أصغر من اللوبيا(٤) هش يضرب الى الحلاوة وفيه قبض ولعابية كثيرة يطبخ أهل مصر به اللحم بأن يقطع مع قشوره صغارا ويكون طعاما لا بأس به ، الغالب على

---

(١) من الفصيلة الخبازية ثمارها تؤكل مطبوخة قبل أن تقسو اى قبل أن نقترب من الجفاف ، وقد اعتمد معجم الشهابى لمصطلح العلوم الزراعية ما أورده عبد اللطيف البغدادى فى الافادة والاعتبار (وهو الكتاب الذى بين أيدينا الآن) كمصدر اساسى لتوثيق اللفظ العربى • المقابل العلمى · Hibiscus esculentus .

– معجم الشهابى لمصطلحات العلوم الزراعية ، ماده okra •

– معجم المصطلحات العلمية ليوسف خياط عربى – انجليزى – مادة بامية •

(٢) جرا بدون همز ، والهمز فى هده الطبعة خطأ مطبعى ، وهو الجرو (بكسر الجيم) والجروه (بكسر الجيم أيضا) الصغير من كل شىء حتى من الحنظل والبطيخ والقثاء والرمان والخيار والباذنجان ••• الخ • راجع لسان العرب لابن منظور مادة (جرو) •

(٣) فى لسان العرب : الزبرة الشعر المجتمع للفحل والأسد وغيرها •• ورجل أزبر كثير الشعر ، وكل شعر مجتمع فهو زبرة ، والمقصود أن على البامية ما يشبه الوبر أو الزغب •

(٤) المقصود يشبه اللوبيا •

طبعه الحرارة والرطوبة ولا يظهر فى طبيخه قبض بل لزوجة ·

ومن ذلك الملوخية ويسميها الأطباء الملوكية · ولعمرى هى الخبازى البستانى ، والخطمى (٥) أيضا نوع من الخبازى (٦) البرى · والملوخية أشد مائية ورطوبة من الخبازى وهى باردة رطبة فى الأولى تزرع فى الباقل (٧) ويطبخ لها اللحم ، وهى كثيرة اللعابية وتزرع أيضا بالشام قليلا ويطبخ بها عندهم فى الندرة وهى ردية للمعدة ؛ لكنها تسكن الحرارة وتبرد ويسرع انحدارها لتزلقها · قال الاسرائيلى (٨) : رأيت نوعا ثالثا من الخبازى يسمى بمصر ملوخية السودان ويعرف بالعراق بالشوشنديبا وقوته وفعله وسط بين الملوخية والخبازى ؛ لأنه أقل غذاء من الملوخية وأكثر من الخبازى ·

---

(٥) خطم او خطمى جنس نبات من الخبازيات فيه أنواع برية ومن أنواعه المشهورة الخطمى الوردى · أشار اليه الشهابى فى معجمه تحت المصطلحين التاليين Althaea و Ketmia ، ويلاحظ أن المصطلح الاول تحريف للكلمة العربية · وقد أورد الشهابى انواعا عديدة منه يستبعد أن تكون ما أشار اليه البغدادى منها :

- وردة العين – يزرع لزهره ·
- خطمى المنافع – يزرع لزهره ·
- خطمى عسكرى – يزرع لزهره ·
- وخطمى وردى أو دمشقى Alcea Rosea ·

راجع معجم المصطلحات العلمية لخياط ، ومعجم الشهابى ·

(٦) خبازة (بتشديد الباء وفتحها) أو خباز أو خبارى (بألف مقصورة – بفتح الزاى) والخبيز هو جنس نبات من الفصيلة الخبازية فيها أنواع تستخدم فى الطب وأنواع تؤكل بطبخ ورقه · وردت فى معجم الشهابى لمصطلحات العلوم الزراعية تحت Malva · راجع : معجم المصطلحات العلمية ليوسف خياط / مادة خدر ومعجم الشهابى – مادة Malva ·

(٧) تزرع فى الباقل أى فى أرض لا شجر فيها ، وفى ابن منظور « قال ابن جنى : مكان مبقل هو القياس ، وباقل اكثر فى السماع ، والاول مسموع أيضا · وقال الاصمعى : ابقل المكان فهو باقل من نبات البقل ، وأورس الشجر فهو وارس اذا أورق ··· والبقل هو مالا تبقى له أرومة بعد أن يرعى · وفى المثل : لا تنبت البقلة الا الحقلة ، والحقلة هى الارض الطيبة ·

(٨) عن الاسرائيلى راجع المقدمة ·

ومن ذلك اللبخ (٩) وشجرته ــ كالسدرة(١٠) ــ ريا نضرة وثمرته بقدر الخلال الكبار وفى لونه ، الا انه مشبع الخضرة كلون المسن ، وما دام فجا ففيه قبض كما فى البلح فاذا نضج طاب وحلا وعادت فيه لزوجته ونـواته كنـواة الأجاص (١١) أو كقلب اللوزة بيضـاء الى الغبرة وتكسر بسهولة ، فتنفلق عن لوزة ريا بيضاء لينة واذا بقيت ثلاثة أيام ضمرت وصلبت • وكلما تطاول عليها الزمن اضمحل اللب وبقى القشر فارغا أو كالفارغ ، غير أنه لا يتشنج بل يتقلقل اللب فيه لسعة المكان عليـه ، وتجـد فى طعم اللب مرارة ظاهرة ولذعا يبقى أثره فى اللسـان مدة • وقد حدثت على أنه أحد ضروب الدند (١٢) الثلاثة ، فقد قال

---

(٩) اللبخ ، شجر من فصيلة القرنيات ، الواحدة لبخة وردت فى معجم الشهابى عند : Lebbek Albizzia ، Lebbek tree .

ــ عن معجم المصطلحات العلمية ليوسف خياط ، ومعجم الشهابى لمصطلحات العلوم الزراعية •

(١٠) المقصود هنا شجر النبق • معجم المصطلحات العلمية لخياط •

(١١) الأجاص ــ فى معجم الشهابى أن عبد اللطيف البغـدادى أشار اليه فى كتاب الافادة والاعتبار (وهو الكتاب الذى بين أيدينا الآن) وهو الخوخ أو خوخ الدب بالشام وجعل له الشهابى مقابلا علميا Prunus Ursina (bear plum) وفى موضع آخر يذكر معجم الشهابى أجاصا أهليا أو شائعا ، وهو النوع الزراعى المشـهور يسـمى البرقوق فى مصر والخوخ فى الشام (مادة plum tree) .

(١٢) فيما يلى ما ورد فى تذكرة داود عن نبات الدند :

(دند) هو المعروف الآن بمصر والشام بحبة الملوك وليس كذلك كما سيأتى ويسمى الحروع الصينى ، منه ما يجلب من سمندور وتناصر وغيرهما من مدن الصين وهو أبيض يضرب ظاهره الى الصفرة دقيق القشر ونوع يجلب من كنبابة والدكن ويعرف بالهندى ويقرب من الأول الا أن فيه نقطا سودا وصنف يجلب من الشحر وأطراف عمان أسود صغير لا يجوز استعماله لرداءته وهذا الحب يكون فى شجرة نحو ذراع ورقها كورق الباذنجان لكن أدق يسيرا وزهره كالوانه ينشأ فى غلف دقاق الى خضرة يدرك بمسرى فاذا رفع تبقى قوته سبع سنين فى بلده وثلاثة فى غيرها وهو حار يابس فى أول الرابعـة ينفع من الاستسقاء واليرقان وأوجاع المفاصل والظهر والساقين والوركين والنقرس والخام والحمى ويفتح السدد ويمنع الشيب ويسود الشعر والهند تستعمله فى المعاجين الكبار ولأهل الصين فيه مزيد رغبة من أدوية الأقاليم الباردة والمشايخ ولا يجوز لضعاف الأرواح كمصر والحجاز ولا لكثيرى التحليل كالحبشة وهو مكرب مغث شديد المغص =

آرسطو وغيره ان اللبخ كان بفارس سما قاتلا فنقل الى مصر فصار غذاء · وقال نيقولاوس : وأما اللبخ فقد كان فى أرض فارس قاتلا فنقل الى الشام والى مصر فصار جيدا مأكولا وهو قليل غال وانما تكون فى البلاد منه شجرات معدودات ، وأما خشبه ففى غاية الجودة صلب حجرى وأسود وهو عزيز ثمين واهل مصر يحضرون اللبخ مع الفواكه والأنقال · وقال أبو حنيفة الدينورى (١٣) : اللبخ شجرة عظيمة مثل الاثاب (١٤) اذا عظم ، وورقها كورق الجوز ولها جنا كجنا (١٥) الحماط مر اذا كل أعطش واذا شرب عليه الماء نفخ البطن ، وهو من شجر الجبال ، ثم روى عن رجل من صعيد مصر أن اللبخ شجر عظام أمثال الدلب(١٦)، له ثمر أخضر يشبه الثمر حلو جدا ، الا أنه كريه جيد

= يحل القوى ويقيء وربما قتل الاسهال لمن لا يعرف قانونه وبين نصفى حبته اذا انقسمت لسان دقيق أشد ضررا من البيش فينبغى رفعه ويصلحه التربد والبسفايج والزعفران والاشقيل والورد المنزوع والانيسون والكثيرا والهندى مجموعة ومفردة فانه معها يستقصى الاخلاط وينقى من الكيموسات الرديئة وينبغى شرب الماء البارد عليه واللبن ونحو رب الريباس والحصرم وشربته الى دانقين وفيه شعيذة اذا بلت به الاصبع ووضعت على جفن العين ورم يصلحه الشيرج أو الزيت وبدله حب النيل ·

(١٣) أبو حنيفة الدينورى هو أحمد بن داود بن وتند (بفتح الواو والنون الأولى وسكون النون الثانية) الدينورى (بتشديد الدال وفتحها وفتح النون وكسر الراء) ، وكنيته · أبو حنيفة · مهندس ومؤرخ وعالم نبات من كتبه المطبوعه : الأخبار الطوال ، وكتاب النبات ، وتفسير القرآن ١٣ مجلدا ، والشعر والشعراء ، والفصاحة والحدر والمقابلة ، توفى سنة ٢٨٢ هـ / ٨٩٥ م · الاعلام لخير الدين الزركلى / حـ ١ ، ص ١٢٣ ·

(١٤) الأثاب يشبه الجميز (بين الجميز والتين) الشهابي / مادة (Ficus) .

(١٥) الحماط ، بفتح الحاء والميم ، أورده معجم الشهابى تحت الاسم العلمى Ficus Pseudosy Comporus وهو الجميز الكاذب ويسمى أيضا تين الجبل ·

أما جنا فلعله خطأ مطبعى أو املائى ، والصحيح جنى ، وفى لسان العرب لابن منظور « واجنت الشجرة اذا صار لها جنى يجنى فيؤكل » ·

لسان العرب / مادة (ج ن ى) ولم نجده فى (ج ن و) ·

(١٦) الدلب من شجر الزينة (معجم المصطلحات الفنية) وفى معجم الشهابى أن اسمه أيضا صنار بكسر الصاد وهناك خلاف فى دلالات الاسم أوردها الشهابى ·

لوجـــع الأضراس ، قال : واذا نشر أرعف ناشره وينشر فيبلغ ثمن اللوح خمسين دينارا ويجعله أصحاب المراكب فى بناء السفن لبعض العلل ، وزعم أنه اذا ضم منه لوحان ضما شديدا وجعلا فى الماء سنة التحما وصارا لوحا واحــدا . وأكثر ما حــكاه الدينورى لا أعــرف صــحته . وقال ابن سمجون (١٧) : اللبخ يكون بمصر وثمرته جيدة للمعدة وقد يوجد عليه صنف من الرتيلاء (١٨) وورقه اذا جفف قطع الدم ذرورا ، والاسهال شربا ، وفيها قبض بين . قال : وأما نوى ثمره ، فيزعم أهل مصر أن أكله يحدث صمما .

ومن ذلك الجميز وهو بمصر كثير جدا ورأيت منه شيئا بعسقلان والساحل ؛ وكأنه تين برى وتخرج ثمرته فى الخشب لا تحت الورق ويخلف فى السنة سبعة بطون ويؤكل أربعــة أشهر ويحمل وقرا عظيما وقبل أن يجىء بأيام يصعد رجــل الى الشجرة معه حديدة يسم بها حبة حبة من الثمرة فيجرى منها لبن أبيض ، ثم يســود الموضــع وتحلــو الثمرة بذلك الفعل . وقد يوجد منه شىء شديد الحلاوة أحلى من التين ؛ لكنه لا ينفك فى أواخر مضغه من طعم خشبية ما . وشجرته كبيرة كشجرة الجــوز العاتية ويخرج من ثمره وغصنه اذا فصد لبن ابيض اذا طلى على ثوب أو غيره صبغه أحمر .

---

(١٧) هو حامد بن سمجون (بفتح السين وضم الجيم) وكنيته . أبو بكر . له كتاب فى الادوية . توفى حوالى سنة ٤٠٠هـ/١٠١٠ م .

راجع عنه . طبقات الأطباء لابن ابى اصيبعة .

(١٨) الرتيلاء ـ بتشديد الراء وفتحها ويسمى أيضا الرتيلا بلا همز وهو عشب ينبت فى شمال افريقيا وأوربا ويسمى احيانا جذامير ومفرده جذمور او جذمار ، وأوراقه تشبه أوراق الحشائش وأزهاره بيضاء متدلية ، ويسمى الرتيلاء أيضا نبات زهــرة العنكبوت ، من الفصيلة الزمبقية Lilieae .. وفى المعجم نفسه أن بذوره مدرة للطمث والبول وضد لدغ العقرب والعناكب السامة ـ معجم المصطلحات العلمية والفنيــة ليوسف خياط .

وخشبه تعمر به المساكن ويتخذ منه الأبواب وغيرها من الآلات الجافية . وله بقاء على الدهر وصبر على الماء والشمس · وقلما يتآكل هذا مع أنه خشب خفيف قليل اللدونة ويتخذ من ثمرته خل حاذق ونبيذ حاذ ·

قال جالينوس : الجميز بارد رطب فيما بين التوت والتين وهو ردىء للمعدة ولبن شجرته له قوة ملينة تلصق الجراح وتفش الأورام ويلطخ على لسع الهوام ويحلل حساة الطحال وأوجاع المعدة ضمادا ، ويتخذ منه شراب للسعال المتقادم ونوازل الصدر والربه · وعمله بأن يطبخ فى الماء حتى تخرج فيه قوته ويطبخ ذلك الماء مع السكر حتى ينعقد ويرفع · وقال أبو حنيفة : ومن أجناس التين تين الجميز وهو تين حلو رطب له معاليق طوال ويزبب ، وضرب آخر من الجميز حملة كالتين فى الخلقة وورقه أصفر من ورق التين وتينه أصفر صغار وأسود ويكون بالقور ويسمى التين الذكر ، والأصفر منه حلو والأسود يدمى الفم وليس لتينه علاقة بل لاصق بالعود ·

ومن ذلك البلسان (١٩) ، فانه لا يوجد اليوم الا بمصر بعين شمس فى موضع محاط عليه محتفظ به مساحته نحو سبعة أفدنة وارتفاع شجرته نحو ذراع وأكثر من ذلك ، وعليها قشران الأعلى أحمر خفيف والأسفل أخضر ثخين ، واذا مضغ ظهر فى الفم منه دهنيته ورائحة عطرة وورقه شبيه بورق السنداب ، ويجتنى دهنه عند طلوع الشعرى بأن تشدخ السوق بعد ما يحت عنها جميع ورقها وشدخها يكون بحجر يتخذ محددا ، ويفتقر شدخها الى صناعة بحيث يقطع

---

(١٩) البلسان : أورده يوسف خياط فى بلسم دون أن يذكر انه هو البلسان وقال انه نبات زراعى عطرى من المركبات انبوبية الزهر · وضبطه معجم الشهابى بفتح الباء واللام وجعله مرادفا للخمان بفتح الخاء والميم ، أما المقابل الاجنبى فهو elder (Sambucus) ،

القشر الأعلى ويشق الأسفل شقا لا ينفذ الى الخشب فان نفذ الى الخشب لم يخرج منه شيء • فاذا شدخه كما وصفنا أمهله ريثما يسيل لثاه (٢٠) على العود فيجمعه باصبعه مسحا الى قرن فاذا امتلأ صبه فى قنانى زجاج ولا يزال كذلك حتى ينتهى جناه وينقطع لثاه ، وكلما كثر الندى فى الجو كان لثاه أكثر وأغزر ، وفى الجدب وقلة الندى يكون اللثا أنزر (٢١) ومقدار ما أخرج منه فى سنة ست وتسعين وخمسمائة ، وهى عام جدب ، نيف وعشرون رطلا • ثم تؤخذ القنانى فتدفن الى القيظ وحمارة الحر وتخرج من الدفن وتجعل فى الشمس ثم تتفقد كل يوم فيوجد الدهن وقد طفا فوق رطوبة مائية وأثقال أرضية فيقطف الدهن ثم يعاد الى الشمس ولا يزال كذلك يشمسها ويقطف دهنها حتى لا يبقى فيها دهن فيؤخذ ذلك الدهن ويطبخه قيمه فى الخفية لا يطلع على طبخه أحدا ثم يرفعه الى خزانة الملك • ومقدار الدهن الخالص من اللثا بالترويق نحو عشر الجملة • وقال لى بعض أرباب الخبرة ان الذى يحصل من دهنه نحو من عشرين رطلا ورأيت جالينوس يقول : ان أجود دهن البلسان ما كان بأرض فلسطين وأضعفه ما كان بمصر • ونحن فلا نجد اليوم منه بفلسطين شيئا البتة وقال نيقولاوس فى كتاب النبات : ومن النبات ما له رائحة طيبة فى بعض أجزائه ومنه ما رائحته الطيبة فى جميع أجزائه كالبلسان الذى يكون فى الشام بقرب بحر الزفت والبير التى يسقى منها تسمى بير البلسم وماؤها

---

(٢٠) فى لسان العرب لابن منظور اللثى شيء يسقط من الشجر وقيل اللثى شيء تنضحه ساق الشجرة ، وقيل : اللثى ما دق من العلوك حتى يسيل فيجرى ويقطر • واللثى ما سال من ماء الشجر من ساقها وهناك من ينطقها لثأ بالهمز •

(٢١) النزر اى القليل التافه ــ بفتح النون وتسكين ما بعدها •

عذب · وقال ابن سمجون انما يوجد فى زماننا هذا بمصر فقط ويستخرج دهنه عند طلوع كلب الجبار، وهو الشعرى، وذلك فى شباط ومقدار ما يخرج ما بين خمسين رطلا الى ستين ويباع فى مكانه بضعفه فضة · وكانت هذه الحال قد كانت فى زمن ابن سمجون وحكى عبد الرازق أن بدله دهن الفجل وهذا بعيد والبلسان الدهنى لا يثمر وانما تؤخذ منه فسوخ فتغرس فى شباط فتعلق وتنمى وانما الثمر للذكر البرى ولا دهن له ويكون بنجد وتهامه وبرارى العرب وسواحل اليمن وبأرض فارس ويسمى البشام ويربى قشره قبل استخراج دهنه فيكون نافعا من جميع السموم ، وأما خواصه ومنافعه فالاليق بها غير هذا الكتاب ·

ومن ذلك القلقاس ، وهو أصول بقدر الخيار ومنه صغار كالأصابع يضرب الى حمرة خفيفة يقشر ثم يشقق على مثل السلجم (٢٢) وهو كشف مكتنز يشابه الموز الأخضر الفج فى طعمه وفيه قبض يسير مع حرافة قوية وهذا دليل على حرافته ويبسه فاذا سلق زالت حرافته جملة وحدث له مع ما فيه من القبض اليسير لزوجة مغرية كانت فيه بالقوة ، الا أن حرافته كانت تخفيها وتسترها ولذلك صار غذاؤه غليظا بطىء الهضم ثقيلا فى المعدة ، الا أنه لما فيه من القبض والغلاصة صار مقويا للمعدة حابسا للبطن اذا لم يكثر منه · ولما فيه

---

(٢٢) السلجم أو الشلجم كما ورد فى معجم يوسف خياط للمصطلحات العلمية هو اللفت · وفى المعجم نفسه أن الكلمتين أطلقتا فى الاصطلاح الحديث ، أى منذ القرن الماضى (التاسع عشر) على هذا النبات ؛ لأن بعض النباتيين يجعلونه هو واللفت نوعا واحدا ، والسلجم من الفارسية نبات زراعى دهنى من الفصيلة « الصليبية » · **وان صح ما ورد فى** المعجم يكون ما أشار اليه البغدادى ليس هو اللفت المعروف ، وانما نبات شبيه به لأن البغدادى كتب كتابه سنة ٦٠٠ هـ / ١٢٠٠ م · والمسألة تحتاج لبحث الاخصائيين ·

من اللزوجة والتغرية صار نافعا من سحج المعا (٢٣) ، وقشره أقوى على حبس البطن من جرمه ؛ لأن قبضه أشد ويطبخ فى السماقية (٢٤) وغيرها فيعود فى المرقة لزوجة يعافها من لا يعتادها ، ولكن اذا سلق وصبت سلاقته ثم قلى بالدهن حتى يتورد فلا بأس به • والغالب على مزاجه الحرارة والرطوبة ، ويظهر من حاله أنه مركب من جوهرين : جوهر حار حريف يذهب بالطبخ وجوهر أرضى مائى ينمو بالطبخ • وذلك كما فى البصل والثوم وما كان كذلك فهو نيئا دوائى ومطبوخا غذائى وقد رأيته بدمشق لكن قليلا • ورأيته اذا يبس يرجع خشبيا كالقسط (٢٥) سواء • وأما ورقه فورق مستدير واسع على شكل خف البعير سواء لكنه أكبر منه ويكون قطر الورقة ما بين شبر أو شبرين أو ورقة قضيب مفرد فى غلظ الاصبع وطول شبرين أو أزيد ونبات كل قضيب من الأصل الذى فى الأرض ، اذ ليس لهذا النبات ساق ولا ثمر أيضا وورق القلقاس ، شديد الخضرة رقيق البشرة شبيه بورق الموز فى خضرته ونعومته

---

(٢٣) سحج المعا ـ خطأ مطبعى فيما يبدو ، والصحيح سجج المعى ، يقول ابن منظور : أخذه فى بطنه سج اذا لان بطنه ، وسج النعام أى ألقى ما فى بطنه ، وسج يسج اذا رق ما يجىء منه من الغائط (مادة س ج ج) ، والمعى بفتح الميم والعين وكذلك بكسر الميم وفتح العين من أعفاج البطن فيما يقول ابن سيدة ، والجمع الامعاء ، والمعى هو واحد المصارين ، وفى الحديث : « المؤمن يأكل فى معى واحد والكافر يأكل فى سبعة أمعاء » •• من هذا يتضح وجود خطأ فى المخطوط أو لعله خطأ مطبعى لكننا نرجح الاحتمال الاول •

(٢٤) فى لسان العرب لابن منظور : السماق بتشديد الميم وفتحها من شجر الجبال وله ثمر حامض عناقيد فيه حب صغار يطبخ أما الحبة الحامضة التى يقال لها العبرب (بفتح الباء) فهو السماق (بتشديد السين وضمها) الواحدة سماقة (بضم السين وتشديد الميم وفتحها) ، وقدر سماقية وعبربية بمعنى واحد (مادة : س م ق) •

(٢٥) خطأ فى المخطوط أو طبعة مجلة المصرى ، والصحيح قسطل ويسمى فى الشام الكستنة ويسمى فى مصر أبو فروة • شجر من الفصيلة البلوطية ، له ثمر يؤكل مشويا وهو غنى بالنشا •

ورونقه ونضارته • وقال ديوسقوريدس : ان لهـذا النبات زهرا على لون الورد فاذا عقد عقد شيئا شبيها بالحراب كأنه تفاحة الماء وفيه باقلى صغير أصغر من الباقلى اليونانى يعلو موضعه المواضـع التى ليس فيهـا باقلى فمن أراد أن يزرعه قائما ، يأخذ ذلك الباقلى ويصيره فى كتل طين ويلقيهـا فى الماء فينبت • ورغم أنه يؤكل طريا ويابسا ، فانه يعمل منه دقيق يشرب كالسويق ويعمل منه حسو فيقوى المعدة وينفع من الاسهال المرىء وسـحوج الأمعـاء (٢٦) • وان الشىء الأخضر الذى فى وسـطه المر الطعم اذا سـحق وخلط بدهن وقطر فى الآذن سكن وجعها •

وقال الاسرائيلى : أما نحن فشاهدنا له زهرا • قال : ورأيت أصـل هذا النبات اذا خزن فى المنـازل وجاء وقت نباته تفرع من الباقلى اللاصق به فروع وأنبت من غير أن يظهر له زهر ولا ثمر لكن لون الباقلاء نفسـها كلون زهر الورد ؛ لأنها حين تبرز وتأخذ فى النبات يخرج ما يبرز منها حسن البياض يعلوه تورد يسير • قال : وما وجدنا له جفافا يمكن معه أن يكون منه سويق ولا رأيناه السنة كلها الا رطبا مثل بصل النرجس وبصل الزعفران ونحوه ، قال : ولم نر وسطه هذا الأخضر الذى ذكره ديوسـقوريدس ولا وجدناه السنة كلها الا كالموز الأخضر • أقول : كلا ، بل الحق ما قاله ديوسقوريدس وانه حتى يقبل السبحق ويمكن أن يتخذ منه السويق(٢٧)وهذا رأيناه عيانا وانه اذا جف لا فرق بينه وبين

---

(٢٦) الصحيح سجج المعى أو الامعاء كما أوضحنا فى حاشية سابقة •

(٢٧) السبحق لم نعثر عليه فى المصادر المتوفرة بين ايدينا اما السويق ففى لسـان العرب لابن منظور السويق معروف ، والصاد فيه لغـة ، والجمع أسوقة وغيره • والسويق ما يتخذ من الحنطة والشعير ••• » •

الزنجبيل فى المنظر، سوى أن القلقاس أكبر وتجد فى طعمه حدة ولذعا وأقول عن حدس صناعى مبدؤه المشاهدة والسماع ان القلقاس زنجبيل مصرى أكسبته الأرض رطوبة فقلت حرارته وحدته كما أن الزنجبيل الزنجى والهندى أقوى وأحد من اليمنى ، وأهل اليمن يطبخون به كما يطبخ المصريون القلقاس لكن لا يستكثر منه جدا • ولقد سألت جماعة من التجار وأرباب المعرفة عن منبته باليمن وشكله فكلهم زعم أنه كالقلقاس ، غير أن القلقاس أكبر وكذلك ورقه أكبر من ورق الزنجبيل وقد شاهدته اذا يبس لا فرق بينه وبين الزنجبيل فى الصورة مع حدة ، ولذع يسير • وقال له آخر ان نبات الزنجبيل يشبه نبات البصل ، مع أن القلقاس يكون فى تلك البلاد وكأنه بستانى ، وقال على بن رضوان : القلقاس أسرع الأغذية استحالة الى السوداء ، وقال غيره من أطباء مصر ان القلقاس يزيد فى الباءة • وفى كل نظر لا يليق بهذا الكتاب •

ومن ذلك الموز وهو كثير باليمن والهند ورأيته بالغور وبدمشق مجلوبا ، وكونه من فراخ تظهر من أصل شجرته كما تظهر الفسلان(٢٨) من النخلة ، وتسمى المثمرة الأم فاذا أخذت ثمرتها قطعت هى أيضا وخلفها أكبر نباتها وترتفع قامته الى قامتين وكأنها نخلة لطيفة ، وزعموا أن شجر الموز فى الأصل مركب من قلقاس ونوى النخل تجعل النواة فى جوف القلقاسة وتغرس ، وهذا القول وان كان ساذجا من دليل يشهد له فالحس يسوغه • وذلك أنه تجد لشجرته سعفا كسعف

(٢٨) الفسلان جمع الجمع لفسيلة ، أما الجمع فهو فسائل وفسيل ، والفسيلة هى الصغيرة من النخل فيما يقول ابن منظور •

النخل سواء ، الا أنك ينبغي أن تتخيل الخوص اتصل بعضه ببعض ، حتى صار كأنه ثوب حرير أخضر قد نشر أوراقه خضرا ترف ريا وطراءة ، وكأن الرطوبة اكتسبها من القلقاس والشكل اكتسبه من النخل ، وأنت تعلم أن تشقق سعف النخل الى الخوص انما كان من قبل اليبس الغالب على مزاج النخل. ولكثرة رطوبة الموز بقى سعفه متصل الخوص ولم يتشقق، فعلى هذا يكون القلقاس له بمنزلة المادة والنخل بمنزلة الصورة . وأنت اذا تأملت خشب الموز وورقه بعد يبسه ألفيت فيه تلك الشظايا والخيوط التى تجدها فى جذع النخل وسعفه، الا أنك تجدها مشوبة برطوبة قد ألحمت بينها وملأت فرجها وان كان القلقاس لا ينفك من ذلك أيضا ويتبينه آكله مقلوا . وأما الثمر فانك تراه أعذاقا كأعذاق النخل قد تحمل شجرته خمسمائة موزة فصاعدا ، ويكون فى منتهى العذق موزة تسمى الأم ليس فيها لحم ولا تؤكل ، واذا شققت وجدت مؤلفة من قشور كالبصل كل قشرين منها متقابلان يحتوى كل واحد منهما على نصفها طولا وتحت كل قشر عند القاعدة زهر أبيض بقدر الفستق أو كزهر النارنج(٢٩) عدده احدى عشرة فى صفين لا ينقص عن هذا العدد ولا يزيد الا واحدا نادرا ، فهذا القشر بمنزلة كفرى الطلع (٣٠) ، والزهر بمنزلة الطلع نفسه وتنشق هذه القشور من تلقاء أنفسها

---

(٢٩) النارنج بفتح الراء (وينطقها العامة بكسر الراء ، وأحيانا يبدلون النون الفا ممدودة) جعل له معجم الشهابى مقابلا انجليزيا Seville orange أو Sour orange أو bitter orange ، ثماره لا تؤكل مباشرة فى مصر وانما تملح وتخلل ويسمى فى الشام أبو صفير ، وفى مصر يطعمون به بعض أفرع شجر البرتقال أو الليمون فتنتج الشجرة ليمونا وتنتج بعض فروعها نارنج ، وكذلك شجر البرتقال .

(٣٠) كفرى بضم الكاف أو فتحها أو كسرها وهو قنابة تحيط ببعض اشكال الازهرار ككافور الطلعة فى النخل spathe ، وتطلق المصادر العربية على الطلع احيانا كلمات مثل العذاق (بكسر العين) والكباسة (بكسر الكاف) والقنو (بكسر القاف) ، ومفرد الطلع : الطلعة ، والمقصود هنا أنه يحيط به قنابة تسمى الكافور أو الكفرى .

على التدريج الأعلى فالأعلى ؛ فيظهر ذلك الزهر أبيض بمنزلة البلح وفيه رطوبة حلوة فيتساقط وتعقد عنه الموزة صغيرة فاذا أخذت في النمو قليلا انشق قشر آخر على الرسم ولا يزال كذلك حتى ينتهي العذق ، وتجد قشر الموزة كقشر الرطبة ، الا أنه غليظ جدا بما اكتسبه من مادة القلقاس ، ولحمها حلو فيه تفاهة كأنه رطب مع خبز فالحلاوة له من الرطب والتفاهة من القلقاس ۰ وأما شكلها ففي شكل الرطبة ، الا أنها بقدر الخيارة الكبيرة تميل الى الصفرة والبياض فالصفرة من الرطب والبياض من القلقاس ، وحين ما يقطع يكون شديد الخضرة جدا لا يصلح للأكل فاذا دفن أياما اصفر وصلح للأكل ، ثم انك تجده شحمة واحدة ليس فيها نوى ولا ما يرمى سوى القشر فقط بل تراه كأنه قطعة خبيص (٣١) ناعم المضغ يسترط (٣٢) بسهولة ، واذا أنت تأملته في ضياء ، ألفيت في وسطه حبا كثيرا أصغر من الخردل يضرب الى السواد والشقرة شبيه بحب التين ، لكنه في غاية اللين فهذا كأنه رسم نوى الرطب ، الا أنه لزيادة رطوبته لان وتفرق واختلط باللحم وانساغ معه في الاكل ۰ وله رائحة عطرة لا بأس بها فيها خمرة ما والجشأ العارض لأكله بعد أخذه في الهضم طيب الرائحة وهو حار رطب ورطوبته أزيد من حرارته وكأنه حار في الأول رطب في

---

(٣١) الخبيص أو الخبيصة بفتح الخاء والمقصود كل شيء كالربى ، أى ثمارا طبخت بالسكر وقليل من الماء فاختلطت أجزاؤها وماعت قليلا ۰

(٣٢) سرط (بفتح السين وكسر الراء) الطعام أو الشيء سرطا وسرطانا أى بلعه واسترطه وازدرده ابتلعه كما في لسان العرب ، ومن الواضح ان اللفظ حرف في العامية فأصبح زلط أو ظلط (بفتح الزاى أو الظاء) ورجل زلاط أى كثير الاكل وبالفصحى سراط ويبدو أن التحريف العامي كان له هدف وهو عدم الخلط بين فعل سرط بمعنى ابتلع وفعل آخر قريب مخرج الحروف بمعنى أخرج ريحا ۰

الثانية يزيد في المياه ويدر البول ويحدث تفجأ(٣٣)، ولا يبعد في طبعه هذا عن الرطب الا بكثرة رطوبته التي اكتسبها من القلقاس • فهذا ان كان من تركيب الصناعة فقد صدق الخبر الخبر • وان كان من تركيب الطبيعة فان لها أيضا تركيبات عجيبة متقنة من أصناف الحيوان والنبات فتكون الموز من جملتها • وقال أبو حنيفة : الموز معادته عمان وتنبت الموزة نبات البردية لها عنفرة غليظة وورقة عريضة نحو ثلاث أذرع في ذراعين ليست بمنخرطة على نبات السعف لكن شبه المربعة • وترتفع الموزة قامة باسطة ولا تزال فراخها تنبت حولها واحدة أصغر من الأخرى ، فاذا أجرت وذلك ادراك موزها ، قطعت الأم حينئذ من أصلها ، وتؤخذ قنوها (٣٤) ويطلع أكبر فراخها فيصير هو الأم وتبقى البواقي فراخا لها ولا تزال على هذا أبد الدهر • ولذلك قال أشعب (٣٥) لابنه فيما يروى عنه الأصمعي (٣٦) : يابني لم لا تكون مثلي ؟ فقال أنا مثل الموز لا تصلح حتى تموت أمها • ومن نبات الموز الى اثمارها شهران وبين اطلاعها (٣٧) الى اجرائها أربعون يوما • والموز موجود في

---

(٣٣) الصحيح غالبا نفجا (بالنون) بمعنى (انتفاخا) ، راجع مادة (نفج) في لسان العرب •

(٣٤) القنو جعله الخطيب في معجمه مرادفا للكباسة والطلع •

(٣٥) هو أشعب بن جبير الطماع أو الطامع • ويقال له ابن حميدة • وهو من ظرفاء المدينة وكان مولى لعبدان بن الزبير • قدم بغداد أيام المنصور • انظر • فوات الوفيات ج ١ • تاريخ بغداد •

(٣٦) هو عبد الملك بن قريب (بضم القاف وفتح الراء) بن علي بن أصمع الباهلي ، يعرف بأبي سعيد الأصمعي ولد ومات بالبصرة • كان كثير التطواف بالبوادي ، راوية شعر مشهور • من كتبه : (الأضداد) و (خلق الانسان) و (الفرق) أي الفرق بين أسماء الأعضاء من الانسان والحيوان ، و (الخيل) ، و (النبات والشجر) توفي ٢١٦ هـ / ٨٣١ م • راجع وفيات الأعيان لابن خلكان

(٣٧) اطلاعها : أي ظهور الطلع بها •

أوطائه السنة كلها ويكون فى القنو من أقنائها ما بين ثلاثين موزة الى خمسمائة موزة • ورأيت عند بعض تجار الهند حصرا حسنة لطيفة موشاة ذات وجهين ألوانها أحسن الألوان وأصباغها زهر خالصة كأنها ألوان الحرير عرض الحصير منها نحو ذراعين ونصف وهو أسلة (٣٨) واحدة ليس فيه وصل فجعلت أعجب من طول الأسل الذى يسمى بمصر السمار ، فذكر لى أنه ليس به وانما هو متخذ من ورق الموز الهندى بأن يؤخذ العسيب (٣٩) فيشقق ويجفف ثم يصبغ وينسج منه هذه الحصير • ويباع الحصير منها فى المعبر بدينارين وفيها ما يباع بدرهمين وأرانى من كلا الصنفين •

وأما المحمضات فيوجد بأرض مصر منها أصناف كثيرة لم أرها بالعراق ، من ذلك أترج (٤٠) كبار يعز وجود مثله ببغداد ، ومن ذلك أترج حلو ليس فيه حماض ، ومن ذلك الليمون المركب وهو أصناف أيضا ويوجد فيه ما هو بقدر البطيخة ، ومن ذلك الليمون المختم وهو أحمر شديد الحمرة أقنى حمرة من النارنج شديد الاستدارة مفلطح من رأسه وأسفله مفضوخ فيها بختمين •

---

(٣٨) الأسل ويسمى أيضا الغرز ومن أصنافه الغضور (بتسكين الضاد وفتح الواو) وهو السمار فى مصر ، من الفصيلة الأسلية وله اغصان كثيرة دقاق بلا أوراق • سوقه خضراء ذات أطراف حادة غير متفرعة ولا خشب فيها • ينبت فى الماء أو الأرض الرطبة ونصنع منه الحصر والغرابيل • وانواع الأسل كثيرة وصفاتها متباينة لكننا اقتصرنا على النوع المصرى لانه المقصود • معجم يوسف خياط : المصطلحات العلمية والفنية عربى ـ انجليزى ـ فرنسى / مادة أسل •

(٣٩) المجمع عسب بضم العين والميم ، أصل الأوراق •

(٤٠) اترج ، وترنج (بضم التاء والراء) ويسمى أيضا كباد (بضم الكاف وفتح الباء وتشديدها) ومتك (بضم الميم وتشديد التاء) ، لكن الكلمة الشائعة فى مصر هى اترج • ثمره كبير أصفر لا يؤكل •

ومن ذلك ليمون البلسم وهو فى قدر الابهام وكالبيضة المطلولة (٤١) ، وفيه ما هو مخروط صحيح يبتدىء من قاعدة وينتهى الى نقطة ، وأما لونه وريحه وشحمه وحماضه فلا يغادر من الأترج شيئا ·

وقد يوجد أترج فى جوفه اترج بقشر أصفر أيضا ، وخبرنى صادق انه وجد فى جوف أترجة سبع أترجات صغار . كل واحدة يحيط بها قشر تام والذى رأيته أنا أترجة فى جوفها أترجة ليست تامة ، وقد رأيت منه شيئا بالغور وهذا الأترج المداخل انما يكون فى ذى الحماض · ثم ان هذه الأنواع يركب بعضها على بعض فيتولد منها أصناف كثيرة جدا ·

ومن ذلك صنف من التفاح يوجد بالاسكندرية ببستان واحد يسمى بستان القطعة وهو صغار جدا قانى الحمرة ، واما رائحته فتفوق الوصف وتعلو على المسك وهو قليل جدا ·

وأما القرط (٤٢) فيسمى بالعراق الرطبة وبالشام الفصة وبالفارسية أسفست ·

وأما النخل فكثير لكن اذا قيست ثمرته بثمرة نخل العراق وجدت كأنها قد طبخت طبخة ، خرج بها معظم حلاوتها وبقيت ناقصة القوة ، ومما يسميه أهل العراق القسب يسميه أهل مصر التمر ، وأما التمر بالعراق فيسمونه العجوة وقلما تجد عندهم ما يشابه تمر العراق الا نادرا ويكون ذلك نخيلا معدودة تهدى تحفة ·

---

(٤١) لعله يقصد البيضة المسلوقة التى تم تقشيرها ثم ضغط عليها ، وفى لسان العرب مادة (ط ل ل) « المطلولة جلدة مودونة بلبن محض يأكلونها » وقد استنتجنا المعنى ·

(٤٢) القرط بضم القاف البرسيم ، والقرط بكسر القاف الكراث ، وبمراجعة هذه المادة فى معجم يوسف خياط يصعب علينا معرفة ما يقصده البغدادى ·

وأما الماش (٤٣) وهو المج ، فلا يزرع بمصر أصلا وانما يوجد عند العطارين مجلوبا من الشام ويباع بالأواقى للمرضى • وأما الذرة والدخن فلا يعرفان بمصر اللهم الا بالصعيد الأعلى وخاصة الدخن •

ومما تختص به مصر الأفيون وهو يجتنى من الخشخاش الأسود بالصعيد وكثيرا ما يغشه جناته وربما غشوه بالعذرة (٤٤) وعلامة الخالص منه أن يذوب فى الشمس ويقد فى السراج بلا ظلمة ، واذا طفى تكون رائحته قوية والمغشوش يسوس سريعا • وأرسطو ينهى عن خلطه بدواء العين والأذن لأنه يعمى ويصم •

ومن ذلك الاقاقيا ، وهو عصارة ورق شجر القرظ (٤٥) وثمره يستخرج ماؤه بالدق والعصر ويجعل فى أوان مزحرحة تلقاء الشمس حتى يغلظ ثم يقرص • هذا هو الخالص الخاص وأما العام الذى يجلب الى البلاد ، فانه يؤخذ القرظ فيطحن ويعجن بماءالصمغ ثم يقبض ويختم ويجفف، وشجرته هى السنط وتسمى الشوكة المصرية وورقها هو القرظ بالحقيقة ويدبغ به الجلود ، وعصارة القرظ التى يتخذ منها الاقاقيا تسمى رب القرظ ونساء مصر يشربن عصارته ونقيعه للاسهال •

---

(٤٣) ماش : ورد فى معجم الشهابى تحت المسمى العلمى Vicia Nilotica واسماه أيضا Phascolus aureus ولابد أن الماش الذى اشار اليه البغدادى غير الماش الذى أشارت اليه المعاجم العلمية ، لأن ماش البغدادى نبات طبى ، وماش المعاجم نبات قرنى يؤكل وهو فاصوليا أو لوبيا ونبات البغدادى يباع بالأوقية ونبات المعاجم لا يباع بهذا الميزان الدقيق ، وماش البغدادى لا يزرع فى مصر وانما يجلب من الشام وماش المعاجم منتشرة زراعته فى مصر •

(٤٤) العذرة نبات الكرم أو العنب ، وربما كان هو المقصود • معجم يوسف خياط/مادة (عذر) •

(٤٥) هو شجر السنط المعروف •

والسنط شجر عظام جدا له شوك كثير حديد صلب أبيض وله ثمر يسمى خروب القرظ مدور مسطوح مشاكل لحب الترمس ، الا أنه متصل كقرون اللوبيا وفي داخله حب صغار ، واذا اتخذ الاقاقيا من القرظ قبل كمال نضجه كان أكثر قبضا وأقوى على حبس الطبيعة ، واذا اتخذ مما استحكم نضجه لم يقو على حبس البطن وعلامته أن يكون شديد السواد مشرق اللون ، وقال الدينورى : القرظ شجر عظام كشجر الجوز وخشبه صلب كالحديد واذا قدم اسود كالآبنوس ، وورقه يشبه ورق التفاح ، وله حبلة مثل قرن اللوبيا داخلها حب يوضع في الموازين ويدبغ بورقه وثمره ومنابته القيعان والجبال وحبلة القرظ أصغر من علف الطلح ، واذا رعته الابل احمرت أفواهها وأدبارها حتى أبعارها فتحسبها عصفرا قد جمع وتسمن عليه . وما كان من القرظ بأرض مصر فهو السنط وهو ذكي الوقود قليل الرماد ، وله برمة صفراء ليس لها رائحة زكية كبرم العراق .

ومن ذلك الفقوص وهو قثاء صغار لا يكبر ولا يعدو أطوله الفتر وأكثره في طول الاصبع ، وهو أنعم من القثاء وأحلى ولا شك في أنه صنف منه وكأنه الضغابيس ، أما القتد فهو الخيار .

ويوجد بمصر بطيخ يسمى العبدلي والعبدلاوى ، قيل انه نسب الى عبد الله بن طاهر (٤٦) والى مصر عن المأمون . وأما المزارعون فيسمونه البطيخ الدميرى منسوبا الى

(٤٦) عبد الله بن طاهر بن الحسين بن مصعب بن زريق (الخزاعى بالولاء) من اشهر الولاة فى العصر العباسى . اصله من خراسان . تولى امرة مصر سنة ٢١١ هـ ولم يمكث فيها غير سنة ثم نقل الى دينور ثم تولى امرة خراسان . اثنى عليه المؤرخون لعلمه ومعرفته وكرمه . توفى سنة ٢٣٠ هـ (٨٤٤ م) ابن الاثير : الكامل فى التاريخ ـ أحداث ٢٣٠ هـ .

دميرة (٤٧) قرية بمصر وله أعناق ملتوية وقشره خفيف وطعمه مسخ قلما يوجد فيه حلو ويندر فيه ما وزنه ثلاثون رطلا وآكثر • والغالب عليه ما بين رطل الى عشرة أرطال ، وآهل مصر يستطيبونه على البطيخ المولد المسمى عندهم بالخراسانى والصينى ويزعمون أنه نافع، ويأكلونه بالسكر وطعمه أشبه شىء بالصنف المسمى بالعراق الشلنق ؛ لكنه ألذ منه وأنعم وشكله شكل يقطين العراق ، الا أن لونه حسن الصفرة جدا وفى ملمسه حراشة وتخييش ، وصغاره قبل آن تبلغ تكون كلون اليقطين وشكله وكطعم القثاء ، لها بطون وأعناق وتباع بالفقوص وتسمى العجور ، وآخبرنى مزارعه أن العادة جارية بأن ينقى حقله كل يوم فما يرى مزارعه أن يقطعه صغيرا أخضر قطعه وباعه بالعجور ، وما يرى أنه يتركه حتى يكبر ويبلغ ويصفر كان منه البطيخ العبدلى وقلما تجد فى بطيخ مصر ما هو صادق الحلاوة ؛ لكنه لا يوجد فيه مدود ولا فاسد بل الغالب عليه التفاهة المائية • وجميع أصناف البطيخ بها يباع بالميزان سوى البطيخ الأخضر • وأما البطيخ الأخضر، فانه يسمى بالغرب الدلاع وبالشام البطيخ الرنشى وبالعراق البطيخ الرقى ويسمى أيضا الفلسطينى والهندى• وأما اليقطين الذى يقصره الجمهور على الدباء ، فيكون بمصر مستطيلا وفى شكل القثاء ويبلغ فى طوله الى ذراعين وفى قصره الى شبر • وأما الباقل الأخضر المسمى عندهم بالفول ، فانه يتواصل نحو ستة أشهر ، وكذلك الورد والياسمين يدوم جميع السنة ولا تزال شجرته مزهرة ومنه أبيض وأصفر والأبيض أكثر وأعطر ومنه يتخذ دهن الزنبق بدمياط .

---

(٤٧) قرية دميرة مركز طلخا ، وكان اسمها الدميرتين • القاموس الجغرافى للبلاد المصرية • ق ٢ ، جـ ٢ ، ص ٨٦ •

خاصة ، وكذلك الليمون وانما يقل ويكثر فقط • والبنفسج بمصر عطر جدا لكن لا يحسنون اتخاذ دهنه ولا معجونه • والسفرجل بمصر ردىء جدا صغير عفص غال • وأما تفاحها، فلا بأس به وان كان رديا ، وأما رمانها ففى غاية الجودة ، الا أنه ليس بصادق الحلاوة •

وأما القراسيا ، فلا يوجد بمصر بل بالشام وبلاد الروم وغيرهما • وانما بمصر صنف من الأجاص صغار حامض يسمونه القراسيا ومثل هذا الصنف بدمشق يسمونه خوخ الدلب ؛ لأن الأجاص بالشام يسمى خوخا والخوخ دراقنا والكمثرى أجاصا •

ومما يكثر بمصر شجر خيار شنبر وهو شجر عظام شبيه بشجر الخروب الشامى وزهره كبير أصفر ناضر ذو رواء وبهجة فاذا عقد تدلى ثمره كالمقارع الخضر • وبها شجر اللوز • والسدر بها كثير وثمره النبق حلو جدا ، والتيل يكثر بها ولكنه دون الهندى •

الفصل الثالث

فيما تختص به من الحيوان

من ذلك حضانة الفراريج(١) بالزبل، فانه قلما ترى بمصر فراريج عن حضان الدجاجة وربما لم يفرقوه أيضا ، وانما ذلك عندهم صناعة ومعيشة يتجر فيها ويكتسب منها وتجد فى كلّ بلد من بلادهم مواضع عدة تعمل ذلك • ويسمى الموضع معمل الفروج• وهذا المعمل ساحة كبيرة يتخذ فيها من البيوت التى يأتى ذكرها ما بين عشرة أبيات الى عشرين بيتا فى كل بيت الفا بيضة ويسمى بيت الترقيد • وصفته أن يتخذ بيت مربع طوله ثمانية أشبار فى عرض ستة فى ارتفاع اربعة ويجعل له باب فى عرضه سعته شبران وعقد فى مثله وتجعل فوق الباب طاقة مستديرة قطرها شبر ثم تسقف بأربع خشبات وفوقها سدة قصب يعنى نسيجا منه وفوقه ساسى(٢) وهو مشاقة الكتان وحطبه • ومن فوق ذلك الطين ثم يرصص بالطوب ويطين سائر البيت ظاهره وباطنه وأعلاه وأسفله ؛ حتى لا يخرج منه بخار وينبغى أن تتخذ فى وسط السقف شباكا سعته شبر فى شبر فهذا السقف يحكى صدر الدجاجة • ثم تتخذ حوضين من الطين المخمر بساسى طول

---

(١) الكتاكيت •

(٢) الساس أو الساسى عشب جاف وهو المقصود هنا • وفى لسان العرب لابن منظور السوس والساس حشيشة وقيل شجر لا افنان له •

الحوض ستة أشبار وعرضه شبر ونصف وسمكه عقدة اصبع وحيطانه نحو أربع أصابع ٠ ويكون هذا الحوض لوحا واحدا تبسطه على أرض معتدلة ٠ هذا الحوض يسمى الطاجن فاذا جف الطاجنان ركبتهما على طرف السقف أحدهما على وجه الباب والآخر قباله على الطرف الآخر تركيبا محكما ، وأخذت وصولهما بالطين أخذا متفقا وينبغى أن يكون قعود الطاجنين على خشب السقف بحيث يماسانه ٠ وهذان الطاجنان تحاكى بهما جناحا الدجاجة ، ثم يفرش البيت بقفة تبن ويمهد ويفرش فوقه ضب أو ديس ، يعنى حصيرا برديا على مقداره سواء ، ثم يرصف فوقه البيض رصفا حسنا بحيث يتماس ولا يتراكب لتتواصل الحرارة فيه ٠ ومقدار ما يسع هذا البيت ، المفروض الفا بيضة وهذا الفعل يسمى الترقيد وان ضاقت الحضانة تبتدىء وتسد الباب بأن ترسل عليه لبدا مهندما ثم تسد الطاقة بساسى والشباك أيضا بساسى وفوقه زبل حتى لا يبقى فى البيت منفس للبخار ٠ وتلقى فى الطاجنين من زبل البقر اليابس (٣) قفتين وذلك ثلاث ويبات (٤) وتوقد فيه نار سراج من جميع جهاته وتهمله ريثما يرجع رمادا وأنت تتفقد البيض ساعة بعد أخرى بأن تضعه على عينك ، وتعتبر حرارته ٠ وهذا الفعل يسمى الذواق فان وجدته يلذع العين قلبته ثلاث تقليبات فى ثلاث دفعات تجعل أسفله أعلاه وأعلاه أسفله ٠ وهذا يحاكى تقليب الدجاجة للبيضة بمنقارها وتفقدها اياها بعينها وهذا يسمى السماع الأول ، فاذا صار الزبل رمادا أزلته وتركته بلا نار الى نصف

---

(٣) استخدم البغدادى مصطلحا غير مصرى ، فالمصريون لا يسمونه زبل البقر وانما جلة (بكسر الجيم وتشديد اللام وكسرها) وهو روث البقر او الجاموس يابسا ، ويستخدم كوقود ٠

(٤) والمفرد ويبة ، مكيال معروف ، ولا زال يرد في كلام الفلاحين للدلالة على الكثرة ، كقولهم « هذا الشيء بالويبة » اى كثير ٠

النهار ان كان ترقيده بكرة . وان كان ترقيده من أول الليل حرسته الى آن تحمى وتسمع النار كالسياقة المتقدمة ثم تخلى الطاجنين من النار الى بكرة ، ثم تجعل فى الطاجن الذى على باب البيت من الزبل ثلاثة أقداح وفى الطاجن الذى علــى صدر البيت قدحين ونصفا ومد الزبل بمرود غليظ واطرح فى كل منهما النار فى موضعين منه وكلما خرجت من البيت بعد تفقده فأرخ الستر ، واياك وآن تغفل عنه لئلا يخــرج البخار ويدخل الهواء فيفسد العمل . واذا كان وقت العشاء وصار الزبل رمادا ونزل الدفء الى البيض ، أسفل البيت ، فغير الرماد من الطاجن بزبل جديد مثل الأول، وأنت كل وقت تلمس البيض وتذوقه بعينك ، فان وجدت حرارته زائدة عن الاعتدال تلذع العين ، فاجعل مكان ثلاثة الأكيــال لطاجن الباب كيلين وربعا ، وفى طاجن الصدر كيلين فقط ولاتزال تواصل تغيير الرماد وتجديد الزبل والايقاد حتى لا ينقطع الدفء مدة عشرة أيام بمقدار ما تكمل الشخوص بمشيئةالله وقدرته ، وذلك نصف عمر الحيوان، ثم تدخل البيت بالسراج وترفع البيض واحدة واحدة وتقيمها بينك وبين السراج ، فالتى تراها سوداء ففيها الفرخ ، والتى تراها شبه شراب أصفر فى زجاج لا عكر فيه فهى لاح بلا بذر وتسمى الأرملة فأخرجها فلا منفعة فيها، ثم عدل البيض فى البيت بعد تنقيته وآخرج اللاح عنه وهذا الفعل يسمى التلويح . ثم تصبح بعد التلويح تنقص الــزبل من العيــار الأول ملء كفك من كل حوض بكرة ومثله عشية حتى ينصرم اليوم الرابع عشر ولم يبق من الزبل شيء ، فحينئذ يكمل الحيوان ويشعرن ويتفتح، فاقطع اذ النار عنه فان وجدته زائد الحرارة يحرق العين فافتح الطاقة التى على وجه الباب وأبقها كذلك يومين ثم ذقه على عينك فان وجدته غالب الحرارة فافتح نصف الشــباك

وأنت مع ذلك تقلبه وتخرج البيض الذى فى الصدر الى جهة الباب والبيض الذى فى جهة الباب ترده الى الصدر حتى يحمى البارد الذى كان فى جهـة الباب ويستريح الحار الذى فى الصدر : يشم الهواء فيصير فى طريقة الاعتدال ساعة يحمى وساعة يبرد ، فيعتدل مزاجه وهذا الفعل يسمى الحضـانة كما يفعل الطير سواء ، وتستمر على هذا التدبير دفعتين فى النهار ودفعة فى الليل الى تمام تسعة عشر أيضا فان الحيوان ينطق فى البيض بقدرة الله تعالى وفى يوم العشرين يطرح بعضه ويكسر القشر ويخرج وهذا يسمى التطريح وعنـد تمام اثنين وعشرين يوما يخـرج جميعـه ، وأحمد الأوقات لعمله أمشـير وبرمهات وبرمودة ، وذلك فى شباط وآذار ونيسان ، لأن البيض فى هـذه المدة يكـون غزير الماء كثير البذرة صحيح المزاج والزمان معتدل صالح للنشأة والتكوين، وينبغى أن يكون البيض طريا وفى هذه الأشهر يكثر البيض أيضا (٥) ٠

ومن ذلك الحمير ، والحمير بمصر فارهة جدا ، وتركب بالسروج وتجرى مع الخيل والبغال النفيسة لعلها تسبقها ، وهى مع ذلك كثيرة العدد ومنها ما هـو غال بحيث اذ ركب بسرج اختلط مع البغلات ، يركبه رؤساء اليهود والنصارى ويبلغ ثمن الواحد منها عشرين دينارا الى أربعين ٠

وأما بقرهم فعظيمة الخلق حسنة الصور ، ومنها صنف هو أحسنها وأغلاها قيمة يسمى (البقر الخيسية) وهى ذوات قرون كأنها القسى غزيرات اللبن ٠

---

(٥) اشار الرحالة جوزيف بتس (الحاج يوسف) الى هذه الطريقة نفسها بعد ذلك بخمسة قرون تقريبا ، وقد اثارت عجبـه ، وقد ترجمت هذه الرحلة ونشرت فى سلسلة الالف كتاب الثانى بعنوان رحلة جوزيف بتس الى مصر والحجاز ٠

وأما خيلها فعتاق سابقة ومنها ما يبلغ ثمنه ألف دينار الى أربعة آلاف ، وهم ينزون الخيل على الحمير والحمير على الخيل فتأتى البغلة وأمها آتان ؛ ولكن هذه البغال لا تكون عظيمة الخلق كالتى أمهاتها مهورة ؛ لأن الأم هى التى تعطى المادة ·

ومن ذلك التماسيح · والتماسيح كثيرة فى النيل وخاصة فى الصعيد الأعلى وفى الجنادل فانها تكون فى الماء وبين صخور الجنادل كالدود كثرة وتكون كبارا أو صغارا، وتنتهى فى الكبر الى نيف وعشرين ذراعا طولا ، وتوجد فى سطح جسده مما يلى بطنه سلعة كالبيضة تحتوى على رطوبة دموية وهى كنافجة المسك فى الصورة والطيب ، وخبرنى الثقة أنه يندر فيها ما يكون فى غلو المسك لا ينقص عنه شيئا والتمساح يبيض بيضا شبيها ببيض الدجاج ، ورأيت فى كتاب منسوب الى أرسطو ما هذه صورته ، قال : التمساح كبده تهيج الجماع وكليتاه وشحمه فى ذلك أبلغ ولا يعمل فى جلده الحديد ومن فقار رقبته الى ذنبه عظم واحد ولهذا اذا انقلب على ظهره لم يقدر أن يرجع ، قال : ويبيض بيضا طويلا كالاوز ويدفنه فى الرمل ، فاذا أخرج كان كالحراذين فى جسمها وخلقتها ثم يعظم حتى يكون عشر أذرع ويبيض ستين بيضة ؛ لأن خلقته تجرى على ستين سنا وستين عرقا واذا سفد (٦) منى ستين مرة ، وقد يعيش ستين سنة ·

ومن ذلك الدلفين ، ويوجد فى النيل وخاصة قرب تنيس (٧) ودمياط ·

---

(٦) قال ابن منظور · السفاد نزو الذكر على الانثى · وقال الاصمعى يقال للحيوانات كلها سفد (بفتح السين والفاء أو كسر الفاء) انثاه ·

(٧) من البلاد المندرسة بين الفرما ودمياط ، وكانت جزيرة ببحيرة المنزلة · القاموس الجغرافى للبلاد المصرية لمحمد رمزى / ق ١ ، صص ١٩٧ ــ ١٩٨ ·

ومن ذلك الاسقنقور(٨) ويكون بالصعيد وبأسوان كثيرا ويكون من نتاج التمساح فى البر ، وهو صنف من الورل بل هو ورل الا أنه قصير الذنب ، والورل والتمساح والحرذون والاسقنقور وسميكة صيدا لها كلها شكل واحد ، وانما تختلف بالصغر والكبر والتمساح أعظمها وسميكة صيدا أصغرها تكون بقدر الاصبع وتصلح لما يصلح له الاسقنقور من تسخين الأعضاء والانعاظ ، وكان التمساح ورل بحرى والورل تمساح برى والجميع يبيض بيضا • السقنقور يكون بشطوط النيل ومعيشته فى البحر السمك الصغار وفى البر القطا ونحوه • ويسترط غذاءه استراطا (٩) ويوجد لذكورته خصيان كخصى الديكة وفى مقدارهما ومواضعهما ، واناثه تبيض فوق العشرين بيضة وتدفنها فى الرمل فيكمل كونها بحرارة الشمس فعلى هذا انما هو نوع برأسه وقال ديوسقوريدس انه يكون بنواحى القلزم وبمواضع من بلاد الهند وبلاد الحبشة ، ويفارق الورل بمأواه فان الورل جبلى والسقنقور برى مائى ؛ لأنه يدخل فى ماء النيل • ثم ان ظهر الورل خشن صلب وظهر السقنقور لين ناعم ولون الورل أصفر أغبر ولون السقنقور مدبج بصفرة وسواد ، والمختار من الاسقنقور انما هو الذكر دون الأنثى ويصاد فى الربيع ، لأنه وقت هيجانه للسفاد (١٠) ، فاذا أخذ ذبح فى مكانه وقطعت أطرافه ولا يستقصى قطع ذنبه ، ويشق جوفه ويخرج حشوه الا كشيته وكلاه ثم يحشى ملحا ويخاط ويعلق فى الظل حتى يجف ويرفع ويسقى

---

(٨) السقنقور من رتبة العظاء قصيرات الالسنة • انظر معجم يوسف خياط الاذف ذكره •

(٩) أى يبتلعه أو يزدرده • ابن منظور •

(١٠) أى التزاوج ــ انظر حاشية سابقة •

من كلاه ومتنه وشحمه وسرته من مثقال الى ثلاثة مثاقيل بماء العسل أو بمطبوخ أو بصفرة بيض نيمرشت (١١) وحده أو مع بزر جرجير وخصى ديوك مجفف مدقوق ، وقد يفعل ملحه ذلك اذا خلط بالأدوية البائية ، وقد يركب مع غيره من الأدوية الا أن استعماله مفردا أقوى له ٠

ومن ذلك فرس البحر وهذه توجد بأسافل الأرض وخاصة ببحر دمياط ، وهو حيوان عظيم الصورة هائل المنظر شديد البأس ، يتبع المراكب فيغرقها ويهلك من ظفر به منها ، وهو بالجاموس أشبه منه بالفرس لكنه ليس له قرن وفى صوته صهلة تشبه صهيل الفرس بل البغل ، وهو عظيم الهيئة ، هريت الأشداق ، حديد الأنياب ، عريض الكلكل ، منتفخ الجوف ، قصير الأرجل ، شديد الوثب ، قوى الدفع ، مهيب مخوف الغائلة ، وخبرنى من اصطادها مرات وشقها وكشف عن أعضائها الباطنة والظاهرة أنها خنزير كبير وأن أعضاءها الباطنة والظاهرة ، لا تغادر من صورة الخنزير شيئا الا فى عظم الخلقة ، ورأيت فى كتاب ينطواليس فى الحيوان ما يعضد ذلك وهذه صورته، قال : خنزيرة الماء تكون فى بحر مصر وهى تكون فى عظم الفيل ورأسها يشبه رأس البغل ولها شبه خف الجمل ٠ قال : وشحم متنها اذا أذيب ولت بسويق وشربته امرأة أسمنها حتى تحوز المقدار ٠ وكانت واحدة ببحر دمياط قد ضربت على المراكب تغرقها وصار المسافر فى تلك الجهة مغررا ، وضربت أخرى بجهة أخرى على الجواميس والبقر وبنى آدم تقتلهم وتفسد الحرث والنسل وأعمل الناس فى قتلها كل حيلة من نصب الحبائل الوثيقة

---

(١١) لم نهتد الى تعريف لهذا الطائر وربما كان هناك خطأ فى النسخ ٠

وحشد الرجال بأصناف السلاح وغير ذلك فلم يجد شيئا فاستدعى بنفر من المريس ـ صنف من السودان ـ زعموا أنهم يحسنون صيدها وانها كثيرة عندهم ومعهم مزاريق فتوجهوا نحوها فقتلوها فى أقرب وقت وبأهون سعى ، وأتوا بها الى القاهرة فشاهدتها فوجدت جلدها أسود أجرد ثخينا وطولها من رأسها الى ذنبها عشر خطوات معتدلات ، وهى فى غلظ الجاموس نحو ثلاث مرات وكذلك رقبتها ورأسها وفى مقدم فمها اثنا عشر نابا ستة من فوق وستة من أسفل المتطرفة منها نصف ذراع زائد والمتوسط أنقص بقليل، وبعد الأنياب أربعة صفوف من الأسنان على خطوط مستقيمة فى طول الفم فى كل صف عشرة كامثال بيض الدجاج المصطف صفان فى الأعلى وصفان فى الأسفل على مقابلتهما ٠ واذا فغر فوها وسع شاة كبيرة وذنبها فى طول نصف ذراع زائد أصله غليظ وطرفه كالاصبع ، أجرد كأنه عظم شبيه بذنب الورل وأرجلها قصار طولها نحو ذراع وثلث ولها شبه بخف البعير ، الا أنه مشقوق الأطراف باربعة أقسام وأرجلها فى غاية الغلظ وجملة جثتها كأنها مركب مكبوب لعظم منظرها ٠ وبالجملة ، هى أطول وأغلظ من الفيل ، الا أن أرجلها أقصر من أرجل الفيل بكثير ولكن فى غلظها او أغلظ منها ٠

ومن ذلك السمكة المعروفة بالرعاد ، لأنه من أمسكها وهى حية ارتعد رعدة لا يمكنه معها أن يتماسك ، وهى رعدة بقوة وخدر شديد وتنمل فى الأعضاء وثقل بحيث لا يقدر أن يملك نفسه ولا أن يمسك بيده شيئا أصلا ويتراقى الخدر الى عضده وكتفه والى جنبه بأسره حينما يلمسها أيسر لمس فى أسرع وقت٠ وخبرنى صيادها أنها اذا وقعت فى الشبكة، اعترى الصياد ذلك اذا بقى بينها وبينه مقدار شبر أو أكثر

من غير أن يضع يده عليها وهى اذا ماتت بطلت هذه الخاصة منها · وهى من السمك الذى لا تفليس له ولحمه قليل الشوك كثير الدسم ولها جلد ثخين فى ثخن الاصبع ينسلخ منها بسهولة ولا يمكن اكله · ويوجد فيها الصغير والكبير ما بين رطل الى عشرين رطلا وذكر من يكثر السباحة بنواحيها أنها اذا مست بدن السابح خدر الموضع أين كان ساعة بحيث يكاد يسقط · وتكثر بأسافل الأرض وبالاسكندرية ·

وأما أصناف السمك عندهم فكثيرة ؛ لأنه يجتمع اليهم سمك النيل وسمك البحر الملح ولا يفى القول بنعتهـا لكثرة أصنافها واختلاف اشكالها وألوانها ، ومنها الصنف المسمى عندهم ثعبان الماء وهى سمكة كالحية سواء · طولها ما بين ذراع الى ثلاث أذرع ·

ومنها السرب ، وهى سمكة تصاد من بحر الاسكندرية يحدث لآكلها أحلام ردية مفزعة ، ولا سيما الغريب ومن لم يعتدها والأحدوثات المضحكة فيها مشهورة ·

ومن ذلك الترسة ـ وتسمى لجاة ـ وهى سلحفاة عظيمة وزنها نحو أربعة قناطير، الا أن جفنتها ـ أعنى عظم ظهرها ـ كالترس له أفارين خارجة عن جسمها نحو شبر ، ورأيتهـا بالاسكندرية يقطع لحمها ويباع كلحم البقر ·

وفى لحمها ألوان مختلفة ما بين أخضر وأحمر وأصفر وأسـود وغـير ذلك من الألوان ، وتخـرج من جوفهـا نحو أربعمائة بيضة كبيض الدجاج سواء ، الا أنه لين القشر · واتخذت من بيضها عجة فلما جمـد ، صـار ألوانا ما بين أخضر وأحمر وأصـفر شـبيها بألوان اللحـم ، ومن ذلك السرلينس ، وهو صدف مستدير الى الطول أكبر من الظفر ينشق عن رطوبة مخاطية بيضاء ذات نكتة سـوداء يعافهـا الناظر وفيه ملوحة عذبة زعموا ويباع بالكيل ·

الفصـل الرابع

فى اختصاص ما شوهد من آثارها القديمة

أما ما يوجد بمصر من الآثار القديمة فشىء لم أر ولم أسمع بمثله فى مثلها فأقتصر على أعجب ما شاهدته ·

فمن ذلك الأهرام ، وقد أكثر الناس من ذكرها ووصفها ومساحتها · وهى كثيرة العدد جدا وكلها بين الجيزة وعلى سمت مصر القديمة(١) وتمتد فى نحو مسافة يومين · وفى بوصير (٢) منها شىء كثير وبعضها كبار وبعضها صغار وبعضها طين ولبن وأكثرها حجر وبعضها مدرج واكثرها مخروط أملس ، قد كان منها بالجيزة عدد كثير لكنها صغار فهدمت فى زمن صلاح الدين ، يوسف بن أيوب ، على يدى قراقوش (٣) وكان خصيا روميا سامى الهمة فكان يتولى

---

(١) المقصود هنا منف كما سيتضح فى أكثر من موضع ·

(٢) أبو صير الملق واسمها القديم يعنى أبيدوس الشمالية تمييزا لها عن أبيدوس الجنوبية (العرابة المدفونة) ، واسمها الرومى Busirus أى محل اقامة الاله أوزوريس ، وهى المقصودة هنا ، وهناك أيضا أبو صير وهى كورة من كور الجيزة وغيرها · القاموس الجغرافى للبلاد المصرية ، لمحمد رمزى ، ق ٢ ، ج ٣ ·

(٣) امير نشأ فى خدمة صلاح الدين الايوبى وناب عنه فى مصر · أشرف على بناء سور القاهرة وبناء قلعة الجبل ويعنى اسمه بالتركية العقاب ـ بضم العين وهو الطائر المعروف ، كان له أعداء كثيرون نسبو اليه كثيرا من الأمور التى لا تصدر عن عاقل · النجوم الزاهرة لابن تغرى بردى ، ووفيات الأعيان لابن خلكان ·

عمـائر مصر وهـو الذى بنى السـور من الحجـارة محيطا بالفسطاط والقاهرة وما بينهما وبالقلعة التى على المقطم ، وهو أيضا الذى بنى القلعة وأنبط فيها البيرين الموجودتين اليوم ، وهما أيضا من العجائب وينزل اليهما بدرج نحـو ثلثمائة درجة ، وأخذ حجارة هذه الأهرام الصغار وبنى بها القناطر الموجودة اليوم بالجيزة ، وهذه القناطر من الأبنية العجيبة أيضا ومن أعمال الجبـارين وتكون نيفا وأربعين قنطرة • وفى هذه السنة وهى سنة سبع وتسعين وخمسمائة تولى أمرها من لا بصيرة عنده فسدها رجاء أن يحتبس الماء فيروى الجيزة ، فقويت عليها جرية الماء فزلزلت منهـا ثلاث قناطر وانشقت ، ومع ذلك فلم يرو ما رجا أن يروى • وقد بقى من هذه الأهرام المهدومة قلبهـا وحشـوتها وهى ردم وحجارة صغار لا تصلح للقناطر ؛ فلأجل ذلك تركت •

وأما الأهرام المتحدث عنها المشار اليها الموصوفة بالعظم، فثـلاثة أهرام موضـوعة على خط مسـتقيم بالجيزة قبالة الفسطاط، وبينها مسافات يسيرة زواياها متقابلة نحو الشرق واثنان منها عظيمان جدا وفى قدر واحد وبهما أولع الشعراء وشبهوهما بنهدين قد نهـدا فى صـدر الديار المصرية وهما متقاربان جدا ومبنيان بالحجـارة البيض • وأما الثـالث فينقص عنهما بنحو الربع لكنه مبنى بحجارة الصوان الأحمر المنقط الشديد الصلابة ولا يؤثر فيه الحديد الا فى الزمن الطويل وتجده صغيرا بالقياس الى ذينيك • فاذا قربت منـه وأفردته بالنظر هالك مرآه وحسر الطرف عند تأمله ، وقد سلك فى بناية الأهرام طريق عجيب من الشكل والاتقان ؛ ولذلك صبرت على مر الزمان بل على مرها صبر الزمان• فانك اذا تبحرتها وجدت الأذهان الشريفة قد استهلكت فيها والعقول

الصافية قد أفرغت عليها مجهودها، والأنفس النيرة قدأفاضت عليها أشرف ما عندها والملكات الهندسية قد أخرجتهـا الى الفعل مثلا هى غاية امكانها ، حتى انها تكاد تحدث عن قومها وتخبر بحالهم وتنطق عن علومهم وأذهانهم وتترجم عن سيرهم وأخبارهم ، وذلك أن وضعها على شكل مخروط يبتدىء من قاعدة مربعة وينتهى الى نقطة ، ومن خواص الشكل المخروط ان مركز ثقله في وسطه وهو يتساند على نفسه ويتواقع على ذاته ويتحامل بعضه على بعض فليس له جهـة أخرى خارجة عنه يتساقط عليها • ومن عجيب وضعه أنه شكل مربع قد قوبل بزواياه مهـاب الرياح الأربع ، فان الريح تنـكسر سورتها عند مصادمتها الزاوية وليست كذلك عنـدما تلقى السطح، ولنرجع الى ذكر الهرمين العظيمين فان المساح ذكروا أن قاعدة كل منهما أربعمائة ذراع(٤)طولا فى مثلها عرضا، وارتفاع عمودها أربعمائة ذراع وذلك كله بالذراع السوداء وينقطع المخروط فى أعلاه عند سطح مساحته عشر أذرع فى مثلها ، وأما الذى شاهدته من حالهما فان راميا كان معنا رمى سـهما فى قطر أحدهما وفى سمكه فسقط السهم دون نصف المسافة • وخبرنا أن فى القرية المجاورة لها قوما قد اعتادوا ارتقاء الهرم بلا كلفة فاستدعينا رجـلا منهم ورضخنا له بشىء (٥) فجعل يصعد فيها كما يرقى أحدنا فى الدرج بل أسرع ورقى بنعليه وأتوا به ، وكانت سابقة كنت أمرته أنه اذا استوى على سطحه قاسه بعمامته ، فلما نزل ذرعنـا من عمامته مقدار ما كان قاس فكان احدى عشرة ذراعا بذراع اليد ، ورأيت بعض أرباب القياس قال : ارتفاع عمودها

---

(٤) الذراع مقياس تقريبى للأطوال يبلغ عند المصريين القدماء ٢٥ر٦ بوصة أو ٥٢ر٣٢ سنتيمترا • أسماه على مبارك الذراع الانتيكى وهو قريب من الذراع البلدى •

(٥) دفعنا له بعض المال •

ثلثمائة ذراع ونحو سبع عشرة ذراعا يحيط به أربعة سطوح مثلثات الأضلاع طول كل ضلع منها أربعمائة ذراع وستون ذراعا • وأرى هذا القياس خطأ ، ولو جعل العمود أربعمائة ذراع ، لصح قياسه • وان ساعدت المقادير توليت قياسه بنفسى • وفى أحد هذين الهرمين مدخل يلجه الناس يفضى بهم الى مسالك ضيقة وأسراب متنافذة وآبار ومهالك وغير ذلك مما يحكيه من يلجه ويتوغله ، فان ناسا كثيرين لهم غرام به وتخيل فيه فيوغلون فى أعماقه ولابد ان ينتهوا الى ما يعجزون عن سلوكه ، وأما المسلوك فيه المطروق كثيرا فزلاقه تفضى الى أعلاه فيوجد فيه بيت مربع فيه ناووس من حجر ، وهذا المدخل ليس هو المتخذ له فى اصل البناء وانما هو منقوب نقبا صودف اتفاقا ، وذكر أن المامون هو الذى فتحه وجل من كان معنا ولجوا فيه وصعدوا الى البيت الذى فى أعلاه فلما نزلوا : حدثوا بعظيم ما شاهدوا وأنه مملوء بالخفافيش وابوالها حتى يكاد يمنع السالك ويعظم فيها الخفاش حتى يكون فى قدر الحمام وفيه طبقات • ورروازنه نحو اعلاه وكأنها جعلت مسالك للريح ومنافذ للضوء ، • ولجته مرة أخرى مع جماعة وبلغت نحو ثلثى المسافة فأغمى على من هول المطلع فرجعت برمق •

وهذه الأهرام مبنية بحجارة جافية يكون طول الحجر منها ما بين عشر أذرع الى عشرين ذراعا وسمكه ما بين ذراعين الى ثلاث وعرضه نحو ذلك ، والعجب فى وضع الحجر بهندام ليس فى الامكان أصح منه بحيث لا تجد بينهما مدخل ابرة ولا خلل شعرة ، وبينهما طين كأنه الورقة لا أدرى ما صفته ولا ما هو • وعلى تلك الحجارات كتابات بالقلم القديم المجهول الذى لم أجد بديار مصر من يزعم أنه سمع بمن يعرفه

وهذه الكتابات كثيرة جدا حتى لو نقل ما على الهرمين فقط الى صحف ، لكانت زهاء عشرة آلاف صحيفة • وقرأت في بعض كتب الصابئة القديمة أن أحد هذين الهرمين هو قبر عاذيمون ، والآخر قبر هرميس ويزعمون أنهما نبيان عظيمان ، وأن (عاذيمون) أقدم وأعظم (٦) •

---

(٦) فى الفصل فى الملل والأهواء والنحل لابن حزم الظاهرى جـ ١ (طبعة دار الكتب العلمية) ص ٤٩ عاظيمون ، لكنها كتبت مرة أخرى في ص ١٣٧ عادمون وكتبها الشهرستاني فى الملل والنحل عاذيمون وكتبها البغدادى أغاديمون ، أما هرميس فوردت في الشهرستاني ص ٤٥ هرمس وكذلك عند ابن حزم الظاهرى ص ٥٠ ، ولأهمية ارتباط هذه العقائد بالأهرام ، يهمنا ايراد ما أورده ابن حزم والشهرستاني عن عقائد الصابئة رغم أن البغدادى وحده قد انفرد من دونهما بربط هذه العقائد بأهرام مصر • يقول الشهرستاني عن « حكم هرمس العظيم المحمودة آثاره ، المرضية أقواله وأفعاله ، الذى يعد من الأنبياء الكبار ، ويقال هو ادريس النبى عليه السلام • وهو الذى وضع أسامى البروج والكواكب السيارة ورتبها فى بيوتها ، وأثبت لها الشرف والوبال ، والأوج والحضيض ، والمناظر بالتثليث والتسديس والتربيع ، والمقابلة والمقارنة ، والرجعة والاستقامة • وبين تعديل الكواكب وتقويمها • وأما الأحكام المنسوبة الى هذه الاتصالات فغير مبرهن عليها عند الجميع •

وللهند والعرب طريقة أخرى فى الأحكام أخذوها من خواص الكواكب ، لا من طبائعها • ورتبوها على الثوابت ، لا على السيارات •

ويقال ان عاذيمون وهرمس هما شيث ، وادريس عليهما السلام ، ونقلت الفلاسفة عن عاذيمون انه قال : المبادىء الأولى خمسة : البارى تعالى ، والعقل ، والنفس ، والمكان ، والخلاء ، وبعدها وجود المركبات • ولم ينقل هذا عن هرمس •

ومن حكم هرمس :

قوله . أول ما يجب على المرء الفاضل بطباعة ، المحمود بسنخه ، المرضى فى عادته ، المرجو فى عاقبته : تعظيم الله عز وجل ، وشكره على معرفته ، وبعد ذلك فللناموس عليه حق الطاعة له ، والاعتراف بمنزلته ، وللسلطان عليه حق المناصحة والانقياد ، ولنفسه عليه حق الاجتهاد ، والدأب فى فتح باب السعادة ، ولخلصائه عليه حق التحلى لهم بالود ، والتسارع اليهم بالبذل ، فاذا أحكم هذه الأسس لم يبق عليه الا كف الأذى عن العامة ، وحسن المعاشرة ، وسهولة الخلق ••• » •

فى الفصل لابن حزم الظاهرى •

« وقد يضاف الى جملة من قال أن مدبر العالم أكثر من واحد الصابئون ، وهم يقولون بقدم الأصلين على ما قدمنا من نحو قول المجوس ، الا أنهم يقولون بتعظيم الكواكب السبعة ، والبروج الاثنى عشر ، ويصورونها فى هياكلهم ويقولون بقدمها ، ويقربون الذبائح ، والدخن ، ولهم صلوات خمس فى اليوم والليلة تقترب من صلوات المسلمين ويصومون شهر رمضان ، ويستقبلون في صلاتهم الكعبة والبيت الحرام =

وأنه كان يحج اليهما ويهوى نحوهما من أقطار الأرض، وقد وسعنا القول فى المنقول من الكتاب الكبير فمن أراد التوسعة فعليه ، فان هذا الكتاب مقصور على المشاهد .

وكان الملك العزيز عثمان بن يوسف (٧) لما استقل بعد أبيه ، سول له جهلة أصحابه أن يهدم هذه الأهرام فبدأ بالصغير الأحمر وهو ثالثة الأثافى .

فأخرج اليه الحلبية والنقابين والحجارين وجماعة من عظماء دولته وأمراء مملكته وأمرهم بهدمه ووكلهم بخرابه فخيموا عندها وحشروا عليها الرجال والصناع ووفروا

= ويعظمون مكة والكعبة ، ويحرمون الميتة ، والدم ولحم الخنزير ، ويحرمون من القرائب ما يحرم على المسلمين ، وعلى نحو هذه الطريقة تفعل الهند بالبددة فى تصويرها على أسماء الكواكب وتعظيمها ، وهو كان أصل الأوثان فى العرب ، والدقاقرة فى السودان ، حتى آل الأمر طول الزمان الى عبادتهم اياها . وكان الذى ينتحله الصابئون أقدم الأديان على وجه الدهر ، والغالب على أهل الدنيا الى أن أحدثوا فيه الحوادث ، وبدلوا شرائعه بما ذكرناه ، فبعث الله عز وجل اليهم ابراهيم خليله ﷺ بدين الاسلام الذى نحن عليه الآن ، وتصحيح ما أفسدوه بالحنيفية السمحة التى أتى بها محمد ﷺ ، من عند الله تعالى . فبين لهم كما نص فى القرآن بطلان ما أحدثوه ، من تعظيم الكواكب وعبادتها وعبادة الأوثان ، فلقى منهم ما نصه الله فى كتابه ، وكانوا فى ذلك الزمان وبعده يسمون بالحنفاء ، ومنهم اليوم بقايا « بحران » ، وهم قليل جدا .

للصابئين شرائع يسندونها الى « هرمس » ويقولون انه « ادريس » ، والى قوم آخرين ، يذكرون أنهم أنبياء « كايذون » ويعولون انه « **نوح** » عليه السلام ، و « أسقلانيوس » صاحب الهيكل الموصوف « عاظيمون » و « يوداسف » وغيرهم » . صص ٥٠ ــ ٥١ ، وراجع أيضا ج ١ ، ص ١٣٦ ــ ١٣٧ .

(٧) هو عثمان بن يوسف (ويوسف هذا هو **صلاح الدين الأيوبى المشهور**) بن أيوب . كنيته . أبو الفتح من ملوك الدولة الأيوبية بمصر . وكان نائبا فيها عن أبيه . ولما توفى أبوه (السلطان صلاح الدين) بدمشق ، استقل هو بملك مصر سنة ٥٨٩ هـ وحاول انتزاع دمشق من يد أخيه الأفضل مرتين فلم ينجح ، ونجح فى الثالثة ٥٩٢ هـ فأقام عليها عمه العادل . يقول ابن تغرى بردى فى كتابه النجوم الزاهرة : « استقامت الأمور فى أيامه وعدل فى الرعية وعف عن أموالها . ولد فى القاهرة ومات بها سنة ٥٩٥ هـ / ١١٩٨ م .

ــ النجوم الزاهرة لابن تغرى بردى / حوادث ٥٩٥ وغيرها .
ــ الأعلام للزركلى .

عليهم النفقات ، وأقاموا نحو ثمانية أشهر بخيلهم ورجلهم يهدمون كل يوم بعد بذل الجهد واستفراغ الوسع الحجر والحجرين، فقوم من فوق يدفعونه بالأسافين والامخال، وقوم من أسفل يجذبونه بالقلوس والأشطان ، فاذا سقط سمع له جلبة عظيمة من مسافة بعيدة حتى ترجف له الجبال وتزلزل الأرض ويغوص في الرمل فيتعبون تعبا آخر حتى يخرجوه ثم يضربون فيه الأسافين، بعد ما ينقبون لها موضعا ويبيتونها فيه ، فيتقطع قطعا فتسحب كل قطعة على العجل حتى تلقى في ذيل الجبل وهي مسافة قريبة فلما طال ثواؤهم ونفدت نفقاتهم وتضاعف نصبهم ووهنت عظامهم وخارت قواهم كفوا محسورين مذمومين لم ينالوا بغية ولا بلغوا غاية ، بل كانت غايتهم أن شوهوا الهرم وأبانوا عن عجز وفشل . وكان ذلك في سنة ثلاث وتسعين وخمسمائة ، ومع ذلك فان الرائي لحجارة الهدم يظن أن الهرم قد استؤصل فاذا عاين الهرم ظن أنه لم يهدم منه شيء وانما جانب قد كشط بعضه . وحينما شاهدت المشقة التي يجدونها في هدم كل حجر سألت مقدم الحجارين ، فقلت له : لو بذل لكم ألف دينار على أن تردوا حجرا واحدا الى مكانه وهندامه هل كان يمكنكم ذلك ؛ فأقسم بالله تعالى أنهم ليعجزون عن ذلك ولو بذل لهم أضعافه .

وبازاء الأهرام من الضفة الشرقية مغاير كثيرة العدد كبيرة المقدار عميقة الأغوار متداخلة ، وفيها ما هو ذو طبقات ثلاث وتسمى المدينة حتى لعل الفارس يدخلها برمحه ويتخللها يوما أجمع ولا ينهيها لكثرتها وسعتها وبعدها ، ويظهر من حالها أنها مقاطع حجارة الأهرام ، وأما مقاطع حجارة الصوان الأحمر فيقال انها بالقلزم وبأسوان ، وعند هذه

الأهرام آثار أبنية جبارة ومغاير كثيرة متقنة وقلما ترى من ذلك شيئا الا وترى عليه كتابات بهذا القلم المجهول ٠

وعند هذه الأهرام بأكثر من غلوة(٨)صورة رأس وعنق بارزة من الأرض فى غاية العظم ، يسميه الناس أبا الهول ٠

ويزعمون أن جثته مدفونة تحتالأرض ويقتضىالمقياس أن تكون جثته بالنسبة الى رأسه سبعين ذراعا ، وفى وجهه حمرة ودهان أحمر يلمع عليه رونق الطراءة وهـــو حسن الصورة مقبولها عليه مسحة بهاء وجمال كأنه يضحك تبسما، وسألنى بعض الفضلاء : ما أعجب ما رأيت ؟، فقلت : تناسب وجهأبى الهول فانأعضاء وجهه بالأنف والعين والأذن متناسبة كما تصنع الطبيعة الصور متناسبة ، فان أنف الطفل مثـــلا مناسب له وهو حسن به حتى لو كان ذلك الأنف لرجل كان مشوها به ، وكذلك لو كان أنف الرجل للصبى لتشـــوهت صورته وعلى هذا سائر الأعضاء فكل عضو ينبغى أن يكون على مقدار وهيئة ، بالقياس الى تلك الصورة وعلى نسبتها فان لم توجد المناسبة تشوهت الصورة ٠ والعجب من مصوره كيف قدر أن يحفظ نظام التناسب فى الأعضـــاء مع عظمها وأنه ليس فى أعمال الطبيعة ما يحاكيه وينقله ٠

ومن ذلك الآثار التى بعين شمس وهى مدينـــة صغيرة يشاهد سورها محدقا بها مهدوما ، ويظهر من أمرها أنها قد كانت بيت عبادة وفيها من الأصنام الهائلة العظيمة الشكل من نحيت الحجارة يكون طول الصنم زهاء ثلاثين ذراعا وأعضاؤه على تلك النسبة منالعظم، وقد كان بعض هذه الأصنام قائما

---

(٨) الغلوة مقياس لقياس الاطوال بشكل تقريبى . وفى ابن منظور : « ... بينه وبين الطريق غلوة ٠ والغلوة قدر رمية بسهم » ٠

على قواعد وبعضها قاعدا بنصبات عجيبة واتقانات محكمة وباب المدينة موجود الى اليوم . وعلى معظم تلك الحجارة وتصاوير الانسان وغيره من الحيوان ، كتابات كثيرة بالقلم المجهول وقلما يرى حجر غفلا من كتابة أو نقش أو صورة ، وفي هذه المدينة المسلتان المشهورتان وتسميان مسلتى فرعون وصفة المسلة أن قاعدة مربعة طولها عشر أذرع فى مثلها عرضا فى نحوها سمكا . قد وضعت على أساس ثابت فى الأرض ثم أقيم عليها عمود مربع ، ينيف طوله على مائة ذراع يبتدىء من قاعدة لعل قطرها خمس أذرع وينتهى الى نقطة ، وقد لبس رأسها بقلنسوة نحاس الى ثلاث أذرع منها كالقمع وقد تزنجر بالمطر وبطول المدة اخضر وسال من خضرته على بسيط المسلة ، والمسلة كلها عليها كتابات بذلك القلم ورأيت احدى المسلتين وقد خرت وانصدعت من نصفها لعظم الثقل واخذ النحاس من رأسها ، ثم ان حولها من المسال شيئا كثيرا لا يحصى عددها مقاديرها على نصف تلك العظمى أو ثلثها ، وقلما تجد فى هذه المسال الصغار ما هو قطعة واحدة بل فصوصا بعضها على بعض وقد تهدم أكثرها وانما بقيت قواعدها .

ورأيت بالاسكندرية مسلتين على سيف البحر فى وسط العمارة أكبر من هذه الصغار وأصغر من العظيمتين .

وأما البرابى بالصعيد ، فالحكاية من عظمها واتقان صنعتها واحكام سورها وعجائب ما فيها من الأشكال والنقوش والتصاوير والخطوط ، مع احكام البناء وجفاء الآلات والأحجار مما يفوت الحصر وهى من الشهرة بحيث تغنى عن الاطالة فى الصفة .

ورأيت بالاسكندرية عمود السوارى وهو عمود أحمر منقط من الحجر المانع الصوان عظيم الغلظ جدا شاهق

الطول ، لا يبعد أن يكون طوله سبعين ذراعا وقطره خمس أذرع ، وتحته قاعدة عظيمة تناسبه وعلى رأسه قاعدة أخرى عظيمة وارتفاعها عليه بهندام يفتقر الى قوة فى العلم برفع الأثقال وتمهر فى الهندسة العملية ، وخبرنى بعض الثقات أنه قاس دوره فكان خمسا وسبعين شبرا بالشبر التام .

ثم انى رأيت بشاطىء البحر مما يلى سور المدينة أكثر من أربعمائة عمود مكسوة أنصافا وأثلاثا ، حجرها من جنس حجر عمود السوارى على الثلث منه أو الربع ، وزعم أهل الاسكندرية قاطبة أنها كانت منتصبة حول عمود السوارى، وان بعض ولاة الاسكندرية واسمه قراجا كان واليا عن يوسف ابن أيوب ، فرأى هدم هذه السوارى وتكسيرها وألقاها بشاطىء البحر زعم أن ذلك يكسر سورة الموج عن سور المدينة ، أو أن يمنع مراكب العدو أن تستند اليه ، وهذا من عبث الولدان ومن فعل من لا يفرق بين المصلحة والمفسدة .

ورأيت أيضا حول عمود السوارى من هذه الأعمدة بقايا صالحة بعضها صحيح وبعضها مكسور ويظهر من حالها أنها كانت مسقوفة والأعمدة تحمل السقف، وعمود السوارى عليه قبة هو حاملها وأرى أنه الرواق الذى كان يدرس فيه أرسطوطاليس وشيعته من بعده ، وأنه دار العلم التى بناها الاسكندر حين بنى مدينته وفيها كانت خزانة الكتب التى أحرقها عمرو بن العاص باذن عمر رضى الله عنه (٩) .

---

(٩) احترقت هذه المكتبة اثناء ثورة الاسكندريين على يوليوس قيصر ، وقد نقلت البقية الباقية من كتبها الى مكتبة السيرابيوم الذى دمر باعتباره معبدا وثنيا فى العصر المسيحى . راجع فتح العرب لمصر لالفريد بتلر ، ترجمة محمد فريد أبو حديد .

وأما المنارة فحالها مشهور يغنى عن وصفها وذكر ذو العناية ، أن طولها مائتا ذراع وخمسون ذراعا ٠

وقرأت بخط بعض المحصلين أنه قاس العمود بقاعدتيه فكان اثنتين وستين ذراعا وسدس ذراع وهو على جبل طوله ثلاث وعشرون ذراعا ونصف ذراع فصارت جملة ذلك خمسا وثمانين ذراعا وثلثى ذراع ، وطول القاعدة السفلى اثنتا عشرة ذراعا ، وطول القاعدة العليا سبع أذرع ونصف ذراع، وقاس أيضا المنارة فوجدها مائتى ذراع وثلاثا وثلاثين ذراعا وهى ثلاث طبقات : الطبقة الأولى مربعة وهى مائة ذراع واحدى وعشرون ذراعا ، والطبقة الثانية مثمنة وطولها احدى وثمانون ذراعا ونصف ذراع ، والطبقة الثالثة مدورة وطولها احدى وثلاثون ذراعا ونصف ذراع وفوق ذلك مسجد ارتفاعه نحو عشر أذرع ٠

ومن ذلك الآثار التى بمصر القديمة وهذه المدينة بالجيزة وهى منف التى كان يسكنها الفراعنة وكانت مستقر مملكة ملوك مصر ، واياها عنى بقوله تعالى عن موسى عليه السلام : « **ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها** » ، وبقوله تعالى : « **فخرج منها خائفا يترقب** » ، لأن مسكنه عليه السلام كان بقرية بالجيزة قريبة من المدينة تسمى دموة (١٠) وبها اليوم دير لليهود ، ومقدار خرابها اليوم مسيرة نصف يوم أو نحوه وقد كانت عامرة فى زمن ابراهيم ويوسف وموسى عليهم السلام وقبلهم بما شاء الله تعالى وبعدهم الى زمن

---

(١٠) هى ما يعرف الآن باسم منيل شيحة ٠ على الشاطيء الغربى للنيل مقابل طرا ٠ انظر القاموس الجغرافى للبلاد المصرية لمحمد رمزى ، ق ٢ ، ج ٣ ، صص ١٩ - ٢٠ ٠

بختنصر فانه آخرب ديار مصر وبقيت على خرابه أربعين سنة وسبب خرابه اياها أن ملكها عصم منه اليهود ، حين التجأوا الى مصر ، ولم يمكن منهم بختنصر فقصده بختنصر وأباد دياره . ثم جاء الاسكندر بعد ذلك واستولى عليهم وعمر بها الاسكندرية وجعلها مقر الملك ولم تزل على ذلك الى أن جاء الاسلام ففتحت على يد عمرو بن العاص وجعل مقر الملك بالفسطاط . ثم جاء المعز من المغرب وبنى القاهرة وجعلها مقر الملك الى اليوم . وقد ذكرنا ذلك مشروحا مفصلا فى الكتاب الكبير . ولنرجع الى وصف منف المسماة مصر القديمة :

فهذه المدينة مع سعتها وتقادم عهدها وتداول الملل عليها واستئصال الأمم اياها ، من تعفية آثارها ومحو رسومها ونقل حجارتها وآلاتها وافساد أبنيتها وتشويه صورها ، مضافا الى ما فعلته فيها أربعة آلاف سنة فصاعدا تجد فيها من العجائب ما يفوت فهم الفطن المتأمل ، ويحسر دون وصفه البليغ اللسن وكلما زدته تأملا ، زادك عجبا وكلما زدته نظرا زادك طربا ومهما استنبطت منه معنى ، أنبأك بما هو أغرب ، ومهما استثرت منه علما دلك على أن وراءه ما هو اعظم .

فمن ذلك البيت المسمى بالبيت الأخضر ، وهو حجر واحد تسع أذرع ارتفاعا فى ثمان طولا فى سبع عرضا ، قد حفر في وسطه بيت ، قد جعل سمك حيطانه وسقفه وأرضه ذراعين والباقى فضاء البيت ، وجميعه ظاهرا وباطنا منقوش ومصور ومكتوب بالقلم القديم ، وعلى ظاهره صورة الشمس مما يلى مطلعها وصور كثير من الكواكب والأفلاك وصور الناس والحيوان على اختلاف من النصبات والهيئات : فمن بين قائم وماش وماد رجليه وضامهما ومشمر للخدمة وحامل آلات ومشير بها ، ينبىء ظاهر الأمر أنه قصد بذلك محاكاة

أمور جليلة وأعمال شريفة وهيئات فاضلة واشارات الى أسرار غامضة وانها لم تتخذ عبثا ولم يستفرغ فى صنعتها الوسع لمجرد الزينة والحسن ، وقد كان هذا البيت ممكنا على قواعد من حجارة الصوان العظيمة الوثيقة فحفر تحتها الجهلة والحمقى طمعا فى المطالب ؛ فتغير وضعه وفسد هندامه واختلف مركز ثقله بعضه على بعض فتصدع صدوعا طفيفة يسيرة • وهذا البيت قد كان فى هيكل عظيم مبنى بحجارة عاتية جافية على أتقن هندام وأحكم صنعة وفيها قواعد على عمد عظيمة • وحجارة الهرم متواصلة فى جميع أقطار هذا الخراب ، وقد بقى فى بعضها حيطان ماثلة بتلك الحجارة الجافية وفى بعضها أساس وفى بعضها أطلال ، ورأيت عقد باب شاهقا ركناه حجران فقط وأزجحه حجر واحد قد سقط بين يديه وتجد هذه الحجارة مع الهندام المحكم والوضع المتقن قد حفر بين الحجرين منها نحو شبر فى ارتفاع اصبعين وفيه صدأ النحاس وزنجرته ، فعلمت أن ذلك قيود لحجارة البناء وتوثيق لها ورباطات ، بينها بابان يجعل بين الحجرين ثم يصب عليه الرصاص وقد تتبعها الأنذال المغرورون فقلعوا منها ما شاء الله تعالى وكسروا لأجلها كثيرا من الحجارة حتى يصلوا اليها ولعمر الله قد بذلوا الجهد فى استخلاصها وأبانوا عن تمكن من اللؤم وتوغل فى الخساسة • وأما الأصنام وكثرة عددها وعظم صورها فأمر يفوت الوصف ويتجاوز التقدير ، وأما اتقان أشكالها واحكام هيئاتها والمحاكاة بها الأمور الطبيعية فموضع التعجب بالحقيقة •• فمن ذلك صنم ذرعناه سوى قاعدته فكان نيفا وثلاثين ذراعا وكان مداه من جهة اليمين الى اليسار نحو عشر أذرع ومن جهة الخلف الى الامام على تلك النسبة ، وهو حجر واحد من

الصوان الأحمر وعليه من الدهان الأحمر كأنه لم يزده تقادم الأيام الا جدة ٠

والعجب كل العجب كيف حفظ فيه مع عظم النظام الطبيعي والتناسب الحقيقي ، وأنت تعلم أن كل واحد من الأعضاء الآلية والمتشابهة له في نفسه مقدار ما وله الى سائر الأعضاء نسبة ما بذلك المقدار ٠ وبتلك النسبة تحصل حسن الهيئة وملاحة الصورة ، فان اختل شيء من ذلك حدث من القبح بمقدار الخلل ٠ وقد أحكم في هذه الأصنام هذا النظام احكاما أى احكام ، فمن ذلك مقادير الأعضاء في نفسها ثم نسب بعضها الى بعض، فانك ترى الصنم قد يبتدىء بانفصال صدره عن عنقه عند الترقوة بتناسب بليغ ثم يأخذ الصدر في ارتفاع الترائب الى الثندوتين فيرتفعان عما دونهما ويبرزان من سائر الصدر بنسبة عجيبة ثم يعلوان الى حد الحلمة ، ثم تصور الحلمة مناسبة لتلك الصورة الهائلة ثم تنحدر الى الموضع المطمئن عند القص وفرجة الزور وزور القلب والى تجعيد الأضلاع والتوائها ، كما هو موجود في الحيوان الحقيقي ٠ ثم تنحدر الى مقاط الأضلاع ومراق البطن والتواء العصب وعضل البطن يمينا وشمالا وتوترها وارتفاعها وانخفاض ما دون السرة مما يلي الاقراب ثم تحقيق السرة وتوتر العضل حولها ، ثم الانحدار الى الثنة والحالبين وعروق الحلب والخروج منه الى عظمى الوركين، وكذلك تجد انفصال الكتف واتصالها بالعضد ثم بالساعد وانفتال حبل الذراع والكوع والكرسوع وابرة المرفق ونهرى مفصل الساعد من العضد وعضل الساعد ورطوبة اللحم وتوتر العصب وغير ذلك مما يطول شرحه ، وقد صور كف بعضها قابضا به على عمود قطره شبر كأنه كتاب ، وصورت الغضون

والأسارير التى تحدث فى جلدة الكف مما يلى الخنصر عند ما يقبض الانسان كفه ، وأما حسن أوجهها وتناسبها فعلى أكمل ما فى القوى البشرية أن تفعله وأتم ما فى المواد الحجرية أن تقبله ولم يبق الا صورة اللحم والدم وكذلك صورة الأذن وختارها وتعاريجها على غاية التمثيل والتخييل .

ورأيت أسدين متقابلين بينهما أمد قريب وصورهما هائلة جدا وقد حفظ فيهما النظام الطبيعى والتناسب الحيوانى ، مع كونهما أعظم جثة من الحيوان الحقيقى جدا جدا وقد تكسرا وردما بالتراب .

ووجدنا من سور المدينة قطعة صالحة مبنية بالحجارة الصغار والطوب وهذا الطوب كبير جاف متطاول الشكل ومقداره نصف الآجر الكسرى بالعراق . كما أن طوب مصر اليوم نصف آجر العراق اليوم أيضا .

واذا رأى اللبيب هذه الآثار عذر العوام فى اعتقادهم عن الأوائل بأن أعمارهم كانت طويلة وجثثهم عظيمة أو أنه كان لهم عصا اذا ضربوا بها الحجر سعى بين أيديهم ، وذلك أن الأذهان تقصر عن مقدار ما يحتاج اليه فى ذلك من علم الهندسة واجتماع الهمة وتوفر العزيمة ومصابرة العمل والتمكن من الآلات والتفرغ للأعمال والعلم بمعرفة أعضاء الحيوان وخاصة الانسان ومقاديرها ، ونسب بعضها من بعض وكيفية تركيبها ونصباتها ومقادير وضع بعضها من بعض ، فان النصف الأسفل من الانسان أعظم من النصف الأعلى منه أعنى التنور بمقدار معلوم ، بخلاف سائر الحيوان . والانسان المعتدل طوله ثمانية أشبار بشبر نفسه وطول يده الى طى مرفقه شبران بشبره وعضده شبر وربع وهكذا جميع عظام الصغار والكبار والقصب والسناش

والسلاميات حافظة للنظام فى مقاديرها ونسب بعضها الى بعض ، وكذلك سائر الأعضاء الباطنة والظاهرة كانخفاض اليافوخ عن ذروة الرأس ونتوئه عما دونه ، وامتداد الجبهة والجبينين وتطامن الصدغين ونتوء عظمى الوجنتين وسهولة الخدين وانخراط الأنف ولين المارن وانفراج المنخرين وامتداد الوتر ودقة الشفتين واستدارة الحبك وانخراط الفكين وغير ذلك مما تضيق عنه العبارة ، وانما يدرك بالمشاهدة وبالتشريح والتأمل • وقد ذكر أرسطوطاليس فصلا فى المقالة الحادية عشرة من كتاب الحيوان له ، يدل على أن القوم كان لهم حذاقة واتقان لمعرفة أعضاء الحيوان وتناسبها ، وان جميع ما أدركوه وان جل فهو حقير تافه ، بالقياس الى الأمر الحقيقى المطبوع ، وانما يستعظم ما عرفه الانسان منه بالقياس الى ضعف قوته وبالقياس الى باقى نوعه ممن يعجز عما قدر عليه ، كما يتعجب من النملة اذا حملت حبة شعير ولا يتعجب من الفيل اذا حمل قناطير وهذا نص كلامه باصلاحى قال : من العجب أن نستحب علم احكام التصاوير وعمل الأصنام وافراغها ونتبين حكمته ، ولا نستحب معرفة الأشياء المقومة بالطبيعة ، ولا سيما اذا قوينا على معرفة عللها ، ولذلك لا ينبغى لنا أن نكره النظر فى طباع الحيوان الحقيقى الذى ليس بكريم ، ولا يثقل ذلك علينا كما يثقل على الصبيان • ففى جميع الأشياء الطباعية شىء عجيب ولذلك ينبغى لنا أن نطلب معرفة طباع كل واحد من الحيوان ونعلم أن فى جميعه شيئا طباعيا كريما ، لأنه لم يطبع شىء منها على وجه الباطل ولا كما جاء واتفق ولا بالبخت ، بل كل ما يكون من قبيل الطباع قائما يكون لشىء أعنى لحال التمام ولذلك صار له مكان ومرتبة وفضيلة صالحة • فتبارك الله أحسن الخالقين !!

وأما باطن الحيوان وتجويفاته وما فيها من العجائب التى تشتمل على وصفها كتب التشريح لجالينوس وغيره وكتاب منافع الأعضاء له ، فان أيسر اليسير منه يبهت دونه المصور حسيرا ولا يجد له على ذلك ظهيرا ويعلم مصداق قوله تعالى : « **وخلق الانسان ضعيفا** » •

وأقول ان التعجب من الأمور الصناعية أيضا هو التعجب من الأمور الطباعية ؛ لأن الأمور الصناعية هى بوجه ما طباعية ، وذلك أنها حادثة عن قوى طباعية • وكما أن المهندس اذا حرك ثقلا عظيما استحق أن يتعجب منه ؛ فكذلك اذا صنع صورة من خشب مثلا تحرك تلك الصورة ثقلا ما كان ذلك المهندس أحرى أن يتعجب منه • والله خلقكم وما تعملون فتبارك من هذا ملكوته ، ثم تردون الى عالم الغيب والشهادة • وفى أنفسكم أفلا تبصرون ونور جلاله ساطع فلا يحجبه حجاب ، يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور • ومن أشباح الموجودات بقدرته قائمة وبارادته متحركة وساكنة وبنفاذ أمره فيها فرحة وباقترابها من حضرة قدسه مبتهجة ، ولتكثرها تشهد بوحدانيته وبتغيرها تقر بقدرته وان من شىء الا يسبح بحمده •

ولنرجع الى حديثنا الأول فنقول ، هذه الأصنام مع كثرتها قد تركتها الأيام الا الأقل منها جذاذا وغادرتها رمادا• ولقد شاهدت كبيرا منها وقد نحت من صلعته رحا ولم يظهر فى صورته كبير تشويه ولا تغير بين ، ورأيت صنما وبين رجليه صنم متصل به صغير كأنه مولود بالقياس اليه ، وهو مع ذلك كأعظم رجل يكون وعليه من الملاحة والجمال ما يشوق الناظر اليه لا يمل من ملاحظته • واتخاذ الأصنام قد كان فى ذلك الزمان شائعا فى الأرض عاما فى الأمم ولهذا

قال تعالى فى حق ابراهيم عليه السلام : « **ان ابراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا ولم يك من المشركين** »أى كان وحده فى زمنه موحدا فهو أمة بنفسه لاعتزاله اياهم وانفراده برأى يخالف آراءهم ، ولما رأى بنو اسرائيل تعظيم القبط هذه الأصنام وتبجيلهم اياها وعكوفهم عليها وألفوا ذلك وأنسوا به لطول مقامهم بينهم ، ثم رأوا قوما من أهل الشام عاكفين على أصنام لهم قالوا : يا موسى اجعل لنا الها كما لهم آلهة ، قال : انكم قوم تجهلون . ولما كان النصارى معظمهم وجمهورهم أقباطا وصابئة (١١) ، نزعوا الى الأصل ومالوا الى سنة آبائهم القديمة فى اتخاذ التصاوير فى بيعهم وهياكل عبادتهم وبالغوا فى ذلك وتفننوا فيه ، وربما تراموا فى الجهالة حتى يصوروا الههم والملائكة حوله بزعمهم وجميع ذلك لبقايا فيهم من سنن أوائلهم ، وان كان الأوائل يكبرون الاله أن يدخل تحت ادراك عقلى وحسى فضلا عن تصوير ، وانما سهل على النصارى ذلك وأجرأهم عليه اعتقادهم الالهية للبشر ، وقد حققنا القول فى ذلك فى مقالاتنا عليهم .

وما زالت الملوك تراعى بقاء هذه الآثار وتمنع من العبث فيها والعبث بها وان كانوا أعداء لأربابها ، وكانوا يفعلون ذلك لمصالح منها لتبقى تاريخا يتنبه بها على الأحقاب . ومنها أنها تكون شاهدة للكتب المنزلة فان القرآن العظيم ذكرها وذكر آهلها ففى رؤيتها خبر الخبر وتصديق الأثر . ومنها أنها مذكرة بالصبر ومنبهة على المآل . ومنها أنها تدل على شىء من أحوال من سلف وسيرتهم وتوافر علومهم وصفاء

(١١) من المفهوم ان الصابئة غير النصارى ، لكن ابن حزم الظاهرى فى كتابه الفصل بين الملل والأهواء والنحل عقد مقارنة بينهما واوجد بينهما بعض الشبه ، ج ١ ، ص ٥٠ وما بعدها .

فكرهم وغير ذلك وهذا كله مما تشتاق النفس الى معرفته وتؤثر الاطلاع عليه ، وأما فى زمننا هذا فترك الناس سدى وسرحوا هملا وفوضت اليهم شئونهم فتحركوا بحسب أهوائهم وجروا نحو ظنونهم وأطماعهم وعمل كل امرئ منهم على شاكلته وبموجب سجيته وبحسب ما تسول له نفسه ويدعو اليه هواه . فلما رأوا آثارها هائلة راعهم منظرها وظنوا ظن السوء بمخبرها، وكان جل انصراف ظنونهم الى معشوقهم واجل الأشياء فى قلوبهم وهو الدينار والدرهم كما قيل .

وكل شيء رآه ظنه قدحا وان رأى ظل شخص ظنه الساقى فهم يحسبون كل علم يلوح لهم أنه علم على مطلب ، وكل شيء مفطور فى جبل أنه يفضى الى كنز ، وكل صنم عظيم أنه حاصل المال تحت قدميه وهو مهلك عليه ؛ فصاروا يعملون الحيلة فى تخريبه ويبالغون فى تهديمه ويفسدون صور الأصنام افساد من يرجو عندها المال ويخاف منها التلف ، وينقبون الأحجار نقب من لايتمارى أنها صناديق مقفلة على ذخائر ويسربون فى فطور الجبال سروب متلصص قد أتى البيوت من غير أبوابها وانتهز فرصة ، لم يشعر غيره بها .

وهذه الفطور منها ما يدخل حبوا ومنها ما يدخل زحفا، ومنها ما يدخل سحبا على الوجوه ومنها مضايق لا ينسحب فيها الا الضرب الضئيل وأكثر ذلك انما هو فطور طبيعة الجبال .

ومن كان من هؤلاء له مال أضاعه فى ذلك ومن كان فقيرا قصد بعض المياسير وقوى طمعه وقرب أمله بأيمان يحلفها له وعلوم يزعم أنه استأثر بها دونه علامات يدعى

آنه شاهدها حتى يخسر ذلك عقله وماله . وما أقبح بعد ذلك مآله ! .

ومما يقوى أطماعهم ويديم اصرارهم أنهم يجدون نواويس تحت الأرض فسيحة الأرجاء محكمة البناء ، وفيها من موتى القدماء الجم الغفير والعدد الكثير قد لفوا بأكفان من ثياب القنب لعله يكون على الميت منها زهاء ألف ذراع وقد كفن كل عضو على انفراده كاليد والرجل والاصبع فى قطع دقاق ، ثم بعد ذلك تلف جثة الميت جملة حتى يرجع كالحمل العظيم . ومن كان يتتبع هذه النواويس من الأعراب وأهل الريف وغيرهم يأخذ هذه الأكفان فما وجد فيه تماسكا ، اتخذه ثيابا أو باعه للوراقين يعملون منه ورق العطارين . ويوجد بعض موتاهم فى توابيت من خشب الجميز ثخين ، ويوجد بعضهم فى نواويس من حجارة اما رخام واما صوان وبعضهم فى أزيار مملوءة عسلا ، وخبرنى الثقة أنهم بينما كانوا يتقفون المطالب عند الأهرام صادفوا دنا مختوما ففضوه فاذا فيه عسل ، فأكلوا منه فعلق فى اصبع أحدهم شعر فجذبه فظهر لهم صبى صغير متماسك الأعضاء رطب البدن عليه شىء من الحلى والجوهر . وهؤلاء الموتى قد يوجد على جباههم وعيونهم وأنوفهم ورق من الذهب كالقشر ، وقد يوجد منه أيضا على فرج المرأة وربما وجد قشر من الذهب على جميع الميت كالغشاء ، وربما وجد عنده شىء من الذهب والحلى والجوهر ، وربما وجد عنده آلته التى كان يزاول بها العمل فى حياته . وخبرنى الثقة أنه وجد عند ميت منهم آلة مزين ، مسنا وموسى ، وعند آخر آلة الحجام ، وعند آخر آلة الحائك ، ويظهر من حالهم أنه قد كان من سنتهم أن يدفنوا مع الرجل آلته وماله .

وسمعت أن طوائف من الحبشة هذه سنتهم يتطيرون بمتاع الميت أن يمسوه أو يتصرفوا فيه وكان لنا قريب دخل الحبشة واكتسب مالا منه مائتا أوقية من الذهب ، وانه لما مات أكرهوا رجلا مصريا كان معه على أخذ ماله فأخذه ممتنا عليهم ٠

وقد كان من سنتهم ، والله أعلم، أن يجعل مع الميت شيء من الذهب ، فخبرني بعض قضاة بوصير وهي مجاورة لمدافنهم أنهم نبشوا ثلاثة قبور فوجدوا على كل ميت قشرا رفيعا من الذهب لا يكاد يجتمع فيه ، وفي كل منها سبيكة من الذهب فجمع السبائك الثلاث فكان وزنها تسعة مثاقيل ، والحكايات في ذلك أوسع من أن يحصرها هذا الكتاب ٠

وأما ما يوجد في أجوافهم وأدمغتهم من الشيء الذى يسمونه موميا فكثير جدا ، يجلبه أهل الريف الى المدينة ويباع بالشيء النزر ولقد اشتريت ثلاثة رؤوس مملوءة منه بنصف درهم مصرى ٠

وأرانى بائعه جولقا مملوءا من ذلك فيه الصدر والبطن وحشوه من هذا الموميا ، ورأيته قد داخل العظام وتشربته وسرى فيها حتى صارت كأنها جزء منه ، ورأيت أيضا على قحف الرأس أثر ثوب الكفن وأثر النساجة قد انتقش فيه كما يرسم على الشمع اذا ختمت به على ثوب وهذا المومياء هو أسود كالقار ، ورأيته اذا اشتد عليه حر الصيف يجرى ويلصق بما يدنو منه ، واذا طرح على الجمر غلى ودخن منه رائحة القار او الزفت ، والغالب أنه زفت ومر ٠

وأما الموميا بالحقيقي فشيء ينحدر من رءوس الجبال مع المياه ، ثم يجمد كالقار ويفوح منه رائحة زفت مخلوط

بمر • وقال جالينوس : الموميا يخرج من العيـون كالقـار والنفط • وقال غيره : هو صنف من القـار ويسـمى حيض الجبال ، وهذا الذى يوجد فى تجاويف الموتى بمصر لا يبعد عن طباع الموميا وان يستعمل بدله اذا تعذر •

ومن أعجب ما يوجد فى مدافنهم أصناف الحيوان من الطير والوحش والحشرات ، وقد كفن الواحد منها فى كذا وكذا ثوبا وهو محتاط عليه محتفظ به ، وخبرنى الثقة أنهم وجدوا بيتا تحت الأرض محكما ففتحوه فوجدوا فيه لفائف ثياب القنب وقد تقمطت فأزالوها مع كثرتها فوجودوا تحتها عجلا صحيحا قد أحكم تقميطه ، وحدثنى آخر أنهم وجدوا صقرا فنشروا عنه من لفائف الثياب حتى عيوا فوجدوه ، لم تسقط منه ريشة ، وحكى لى مثل ذلك عن هر وعن عصفور وعن خنفساء وغير ذلك مما يطول شرحه ويهجن ذكره •

وحكى لى الأمير الصادق أنه كان بقوص ، فجاء اليه من يبحث عن المطالب فذكروا له أنهم انخسفت بهم هوة ، موهمة أن فيها دفينا، فخرج معهم بجماعة متسلحين وحفروا فوجدوا زيرا كبيرا موثق الرأس بالجص ، ففتحوه بعد الجهد فوجدوا فيه كالأصابع مكفنا بخرق فحلوه فوجدوا تحتها صيرا وهو سمك صغار وقد صار كالهباء اذا نفخ طار ، فنقلوا الزير الى مدينة قوص بين يدى الوالى واجتمع عليه نحو مائة رجل فحلوا الجميع حتى أتوا على آخره وهو كله صير مكفن ليس فيه سوى ذلك •

ورأيت أنا بعد ذلك فى مدافنهم ببوصير من العجـائب مالا يفى به هذا الكتاب ، فمن ذلك انى وجـدت فى هـذه المدافن مغائر تحت الأرض مبنية باتقان وفيها رمم مكفنة ،

وفي كل مغارة عدد لا يحصى ومن المغائر ما هو مملوء برمم الكلاب ، ومنها ما هو مملوء برمم البقر ، ومنها ما فيه رمم السنانير والجميع مكفن بخرق القنب ، ورأيت شيئا من عظام بني آدم وقد تمشق حتى صار كالليف الأبيض لقدمه ، ومع ذلك فأكثر الرمم التي رأيتها صلبة متماسكة جدا يظهر عليها من الطراءة أكثر من رمم الهالكين سنة سبع وتسعين وخمسمائة الآتي ذكرها آخر كتابنا هذا ، و سيما ما كان من الرمم القديمة قد انصبغ بالزفت والقطران فانك تجدها في لون الحديد وصلابته ورزانته ، ورأيت من جماجم البقر ما شاء الله وكذلك جماجم الغنم وفرقت بين رؤوس المعز والضأن وبين رؤوس البقر والثيران ، ووجدت لحم البقر قد التصق بالأكفان حتى صار قطعة احدة حمراء تقرب الى السواد ، ويخرج العظم من تحتها أبيض وبعض العظام أحمر وبعضها أسود وكذلك في عظام الآدمي ، ولا شك في أن الأكفان كانت تبل بالصبر والقطران وتشرب به ثم يكفن بها فلذلك يصبغ اللحم ويبقيه وما نال منها العظم صبغته فاحمر واسود • ووجدت في عدة مواضع تلالا من رمم الكلاب لعله يكون في جملتها مائة الف رأس كلب أو يزيد وذلك مما يثير الباحثين عن المطالب ، فان جماعة يجعلون مكاسبهم من هذه القبور وأخذ ما سنح لهم من الخشب والخرق وغيره • واستقريت جميع المواضع المحكمة فلم أجد فيها رأس فرس ولا جمل ولا حمار فبقي ذلك في نفسي • فسألت مشايخ بوصير فبادروا الى اخباري بأنهم قد تقدمت فكرتهم في ذلك واستقراؤهم اياه فلم يجدوه • وأكثر توابيتهم من خشب الجميز وفيه القوى الصلب ومنه ما صار في درجة الرماد، وخبرني قضاة بوصير بعجائب منها أنهم وجدوا ناووسا من حجر ففضوه فلقوا فيه ناووسا ، ففضوه فوجدوا فيه تابوتا،

ففتحوه فوجدوا فيه سحلية وهى سام ابرص مكفنة محتاطا عليها معنيا بها ٠

ووجدنا عند بوصير آهراما كثيرة منها هرم قد انهدم وبقى قلبه فقسناه من مبدأ أساسه فوجدناه لا يتقاصر عن هرمى الجيزة ٠

وجميع ما حكيناه من أحوال مدافنهم ببوصير يوجد نحوه وأمثاله بعين شمس وبالبرابى وبغيرها ٠

واعلم أن الأهرام لم أجد لها ذكرا فى التوراة ولا فى غيرها ولا رأيت أرسطو ذكرها ، وانما قال فى اثناء قوله فى السياسة : كما كان من سنة المصريين البناء ، وللاسكندر الأفروديسى تاريخ صغير ذكر فيه اليهود والمجوس والصابئة وتعرض بشىء من اخبار القبط ، وأما جالينوس فرأيته ذكر الأهرام فى موضع واحد وجعله من هرم الشيخوخة ، وقال فى كتاب شرح الأهوية والبلدان لبقراط : فمن أراد أن يتعلم صناعة النجوم فعليه بمصر ، فان أهلها قد عنوا بذلك عناية تامة ٠ هذا معنى قوله ، وقال فى كتاب عمل التشريح : فمن أراد أن يشاهد كيفية تركيب العظام وهيئتها ؛ فينبغى له أن يقصد الاسكندرية ويشاهد موتى القدماء ٠

واعلم أن القبط بمصر نظير النبط بالعراق ٠ ومنف نظيرة بابل والروم والأقاصر بمصر نظير الفرس والأكاسرة بالعراق والاسكندرية نظير المدائن، والفسطاط نظير بغداد٠ والجميع اليوم بعد الاسلام وتشمله دعوة بنى العباس ٠

الفصــــل الخــــامس

فيما شوهد بها من غرائب الأبنية والسفن

وأما أبنيتهم ففيها هندسة بارعة وترتيب فى الغاية . حتى انهم قلما يتركون مكانا غفلا خاليا عن مصلحة ودورهم أقبح (١) وغالب سكناهم فى الأعالى ويجعلون منافذ منازلهم تلقاء الشمال والرياح الطيبة ، وقلما تجد منزلا الا وتجد فيه باذاهيج (٢) وباذاهيجاتهم(٣) كبار واسطة للريح عليها تسلط ويحكمونها غاية الاحكام ، حتى انه يقوم على عمارة الواحد منها مائة دينار الى خمسمائة ، وان كانت باذاهيجات المنازل الصغار يغرم على الواحـد منها دينـار وأسـواقهم وشوارعهم واسعة وأبنيتهم شاهقة ويبنون بالحجر النحيت والطوب الأحمر وهو الآجر ، شكل طوبهم على نصف طـوب العراق ٠

ويحكمون قنوات المراحيض ، حتى انه تخـرب الدار والقناة قائمة ، ويحفرون الكنف(٤) الى المعين فتغير عليهـا برهة من الدهر طويلة ولا يفتقر الى كســح ٠ واذا أرادوا

---

(١) هذا خطأ فى طبعة مجلة المصرى ، والصحيح ما ورد فى طبعـة مطبعـة وادى النيل : افيح ، أى فيحاء ، وليس اقبح ٠

(٢) فى طبعة مطبعة وادى النيل باداهنج ٠

(٣) فى طبعـة مطبعة وادى النيل باداهنجهاتهم ٠

(٤) جمع كنيف (دورة المياه) ٠

بناء ربع أو دار ملكية أو قيسارية استحضر المهندس وفوض اليه العمل فيعمد الى العرصة وهى تل تراب أو نحوه فيقسمها فى ذهنه ويرتبها بحسب ما يقترح عليه ، ثم يعمد الى جزء جزء من تلك العرصة فيعمره ويكمله بحيث ينتفع به على انفراده ويسكن ، ثم يعمد الى جزء آخر ولا يزال كذلك حتى تكمل الجملة بكمال الأجزاء من غير خلل ولا استدراك .

وأما المسناة فيسمونها الرزينة ولهم فى بنائها اتقان حسن ، وصفته أن يحفر الأساس حتى تظهر النداوة وثرى الماء فحينئذ يوضع ملبن من خشب الجميز أو نحوه على تلك الارض الندية بعد ما تمهد ، ويكون عرضه نحو ثلثى ذراع وقطر حلقته نحو ذراعين مثل الذى يجعل فى قعر الآبار ثم يبنى عليه بالطوب والجير نحو قامتين فيصير بمنزلة التنور . فيأتى الغواصون وينزلون هذه البير ، يحفرونها وكلما نبع الماء نزحوه من الطين والرمل ، ويحفرون أيضا تحت ذلك الملبن فكلما تخلخل ما تحته وثقل بما عليه من البناء نزل وكلما نزل غاصوا عليه وحفروا تحته والبناء فى أثناء ذلك يبنى عليه ويرفعه ، ولا يزال البناء يرفع والفاعل تحته يحفر وهو بثقله يغوص حتى يستقر على أرض جلدة ويصل الى الجد الذى يعرفونه ، فحينئذ ينتقلون الى عمل آخر مثله على سمته وعلى بعد أربع أذرع منه أو نحوها ، ولا يزالون يفعلون ذلك فى جميع طول الأساس المفروض ثم يبنون الأساس كالعادة بعد ردم هذه الآبار ؛ فترجع أوتادا راسية للبناء وعمدا تدعمه وتوثقه .

وأما حماماتهم فلم أشاهد فى البلاد أتقن منها وصفا ولا أتم حكمة ولا أحسن منظرا ومخبرا . أما أولا ، فان أحواضها يسع الواحد منها ما بين روايتين الى أربع روايا

وأكثر من ذلك يصب فيه ميزابان ثجاجان حار وبارد وقبل ذلك يصبان فى حوض صغير جدا مرتفع ، فاذا اختلطا فيه جرى منه الى الحوض الكبير وهذا الحوض نحـو ربعه فوق الأرض وسائرة فى عمقها ينزل اليه المستحم فيستنقع فيه ٠
وداخل الحمام مقاصير بأبواب ، وفى المسلخ أيضا مقاصير لأرباب التخصص ؛ حتى لا يختلطوا بالعوام ولا يظهروا على عوراتهم وهذا المسلخ بمقاصيره حسن القسمة مليح البنية وفى وسطه بركة مرخمة وعليها أعمدة وقبة ، وجميع ذلك مزوق السقوف مفـوف الجـدران مبيضـها مرخم الأرض بأصناف الرخام مجزع باختـلاف ألـوانه ، وترخيم الداخل يكون أبدا أحسن من ترخيم الخارج وهو مع ذلك كثيرالضياء مرتفع الازاج ، جاماته مختلفة الألوان ضافية الأصباغ بحيث اذا دخله الانسان لم يؤثر الخروج منه ؛ لأنه اذا بالغ بعض الرؤساء فى أن يتخذ دارا لجلوسه وتنـاهى فى ذلك لم تكن أحسن منه ٠

وفى موقده حكمة عجيبة ، وذلك أن يتخذ بيت النار وعليه قبة مفتوحة بحيث يصل اليها لسان النار ويصف على أفاريزها أربع قدور رصاص كقدور الهراس لكنها أكبر منها، وتتصل هذه القدور قرب أعاليها بمجار من أنابيب فيدخـل الماء من مجرى البير الى فسقية عظيمة ، ثم منها الى القـدر الأولى فيكون فيها باردا على حاله ثم يجرى منها الى الثانيـة فيسخن قليـلا ، ثم الى الثـالثة فيسخن أكثر من ذلك ثم الى الرابعة فيتناهى حره ، ثم يخرج من الرابعـة الى مجـارى الحمام فلا يزال الماء جاريا وحارا بأيسر كلفة وأهون سعى وأقصر زمان وهذا العمل حاكوا به فعل الطبيعة فى بطون الحيوان وطبخها الغذاء ، فان الغذاء يتنقل فى الأمعاء وآلات

الغذاءْ التى هى لكل حيوان وكلما صار الغذاء الى مصير ، حصل على صنف من الهضم ومقدار من النضج حتى يصل الى المعاء الأخير وقد تناهى ٠

واعلم أن هـــذه القدور كل حين تحتاج الى تجـديد ما ينقصها فتـوجد القـدر الأولى التى هى وعاء البارد قد نقصت أكثر من نقصان القدر التى هى وعاء الحار بمقدارين ولذلك علة طبيعية ليس هذا موضعها ٠

ويفرشون أرض الأتون التى هى مقر النار بنحو خمسين اردبا ملحا وهكذا يفعلون بأرض الأفران ؛ لأن الملح من طبعه حفظ الحرارة ٠

واما سفنهم فكثيرة الأصناف والأشكال واغرب ما رأيت فيها مركب يسمونه العشرى شكله شكل شبارة داخلة ، الا أنه أوسع منها بكثير وأطول وأحسن هنداما وشكلا ، قد سـطح بألـواح من خشب ثمينـة محكمـة وأخـرج منهـا أفاريز كالرواشن (٥) نحو ذراعين ، وبنى فوق هذا السطح بيت من خشب وعقد عليه قبـة وفتح له طاقات ورواذن بأبـواب الى البحر من سائر جهاته ثم تعمل فى هذا البيت خزانة مفردة ومرحاض ، ثـم يزوق بأصـناف الأصباغ ويدهن بأحسن دهان ٠

وهـذا يتخـذ للملوك والرؤساء بحيث يكون الرئيس جالسا فى وسادته وخواصه حوله والغلمان ، والمماليك قيام بالمناطق والسيوف على تلك الرواشن وأطعمتهم وحوائجهم فى قعر المركب، والملاحون تحت السطح أيضا وفى باقى المركب

(٥) جمع روشان والمقصود بها التراس الصغير او البلكونة ٠

يقذفون به لا يعلمون شيئا من أحوال الركاب ولا الركاب تشتغل خواطرهم بهم كل فريق بمعزل عن الآخر ومشغول بما هو بصدده ، واذا أراد الرئيس الاختلاء بنفسه عن أصحابه دخل المخدع ، واذا أراد قضاء حاجته دخل المرحاض، والملاحون بمصر يقذفون الى ورائهم فهم فى قذفهم يشبهون الحبالين فى مشيهم القهقرى ويشبهون فى تحريكهم السفن من يجذب ثقلا بين يديه ويمشى به الى خلفه ، وأما ملاحو العراق فهم بمنزلة من يدفع الثقل أمامه ويدسر به فسفنهم تتوجه حيث الملاح متجه ، وأما سفن مصر فهى تتحرك الى ضد الجهة التى اليها الملاح متوجه • واما أى الحالتين أسهل والبرهان عليها فموضعه العلم الطبيعى وعلم تحريك الأثقال •

الفصـــل الســـادس

فى غـرائب أطعمتهـا

فمن ذلك النيدة (٦) وهى بمنزلة الخبيص حمـراء الى السواد وهى حلوة لا فى الغاية وتتخذ من القمح بأن ينبت ثم يطبخ حتى يخرج نشاه وقوته فى المـاء ، ثم يصفى ويطبخ ذلك الماء حتى يغلظ ، ثم يذر عليـه الدقيق ويعقـد ويرفع فيباع بسعر الخبز وهذه تسمى نيدة البـوش ، وقد يطبخ ذلك الماء وحده حتى ينعقد من غـير دقيق وتسـمى النيدة المعقودة وهى أغلى من الأولى وأعلى ٠

ويختصون أيضا باستخراج دهن بزر الفجل والسـلجم والخس ، ويستصبحون به ويعملون منه الصابون، وصابونهم رطب أحمر وأصفر وأخضر وبه شبهتالصابونية واليـه نسبت ٠

---

(٦) ورد فى تذكرة داود (القرن ١١ هـ) عن النيدة ما يلى :

« (نيدة) هى حلاوة تعمل بمصر من الحنطة دون أن يخالطها شىء من الحلاوات وأجودها النقى الصـادق الحـلاوة المحكم الطبخ ؛ وهى حارة فى الأولى معتدلة أجود من النشا تولد خلطا جيدا وتسمن المهزولين وتعدل البلغم وتنفع من البخـار السوداوى والوسواس والماليخوليا والسعال اليابس وأوجاع الصدر وهى بطيئة الهضم ثقيلة تولد السدد والحميات والمطبوخ منها باللوز ردىء جدا وينبغى أن تؤكل على الجوع ولا تتبع بشىء حتى تنهضم وأن لا يتناولها صاحب دعة ؛ لأنها من أغذية أصحاب الكد ويصلحهـا السكنجبين وماء الهندبا » ٠

وأما أطبختهم فالحوامض منها والسواذج هي المعهودة أو قريبة من المعهودة ، وأما المحليات فغريبة وذلك أنهم يتخذون الدجاج بأصناف من الحلويات، وسبيل ذلك أن تسلق الدجاج ثم ترمى في الجلاب ويلقى عليه بندق مدقوق أو فستق أو خشخاش أو بزر رجلة أو ورد ويطبخ حتى ينعقد ثم يتبل ويرفع ، وتسمى هذه الأطبخة بالفستقية والبندقية والخشخشية والوردية وست المنوية للتى تعقد ببزر الرجلة لسوادها ويتفننون فى ذلك تفننا يحتاج الى شرح أكثر من هذا .

أما الحلويات المتخذة من السكر ، فأصناف كثيرة يؤدى استقصاؤها الى الخروج عن الغرض ويحوج الى وضع كتاب مفرد ، وقد يتخذ منها ما يصلح لمداواة الأمراض ولأرباب الحمية من المرضى والناقهين اذا تاقت أنفسهم الى الحلوى ، فمن ذلك خبيص اليقطين وخبيص الجزر والوردية المتخذة بالورد والزنجبيلية المتخذة بالزنجبيل ، وكأقراص العود وأقراص الليمون والأقراص الممسكة وغير ذلك ، وكثيرا ما يستعملون الفستق فى أطبختهم وحلوائهم عوض اللوز وهو مما يفتح سدد الكبد ، ويتخذون منه هريسة تسمى هريسة الفستق وهى لذيذة جدا مسمنة وموادها لحم دجاج مسلوق منسر جزء وجلاب جزءان ومثل ثمن الجميع أو تسعه فستق مقشور مهروس، وكيفية عمله أن يمسح اللحم المنسر بالسيرج ويجعل بالدست بحيث يشم النار ويسكب عليه الجلاب ويضرب حتى ينعقد ثم يلقى على الفستق ويضرب حتى يختلط ثم يرفع .

ومن غريب ما يتخذونه رغيف الصينية وصفته أن يؤخذ من الدقيق الحوارى ثلاثون رطلا بالبغدادى ويعجن

مع خمسة أرطال ونصف سيرجا عجن خبز الخشكنان(٧) ثم يقسم بقسمين ويبسط أحدهما رغيفا فى صينية نحاس قد اتخذت لذلك سعة قطرها نحو أربعة أشبار ولها عرى وثيقة، ثم يعبى على الرغيف ثلاثة أخرفة مشوية محشوة الأجواف بلحم مدقوق ومقلو بالسيرج والفستق المهروس والأفاويه العطرة الحارة بالفلفل والزنجبيل والقرفة والمصطكى (٨) والكزبرة والكمون والهال (٩) الجوزة ونحو ذلك ، ويرش

---

(٧) فى تذكرة داود أن الخشكنان ويكتب أيضا الخشكنانج هو دقيق الحنطة اذا عجن بشيرج وبسط وملىء بالسكر واللوز أو الفستق وماء الورد وجمع وخبز ، وأهل الشام يسمونه المكفن ...

(٨) ورد فى تذكرة داود الانطاكى : (مصطكى) معرب عن مصطيخا اليونانى يسمى الكنة والعلك الرومى والمراد بهذا الاسم عند الاطلاق الصمغ ، وهو نوعان : أبيض ناعم طيب الرائحة فيه لدونة حلو أسود الى المرارة يسحق ويسمى المعلق قيل انه يؤخذ بالشرط والصحيح ان الاول هو المدفوع بحركة الطبيعة الى ظاهر العود كغيره من الصموغ ، والثانى يؤخذ من العود الغض والورق بالطبخ ولا يوجد الا بصاقس من أعمال رودس مما يلى الترك فى الخامس وقيل يوجد باشبيلية من الاندلس ولكنه غير جيد وشجرها فى السباطة ولطف العود والورق كشجر الاراك ولها ثمر يقضم الى المرارة ويؤخذ هذا الصمغ فى شمس الجوزاء وتبقى قوته نحو عشرين سنة وهى حارة فى الثانية يابسة فى الثالثة تذهب الصداع والنزلات وتسهل البلغم مع الغاريقون وما تشبث بالصفراء مع الصبر والسوداء والوسواس وحديث النفس ومبادىء الماليخوليا مع الاهليجات وتوقف النوازل وتنقى القصبة وتقطع النفث والنزف مع الكهربا مجرب وتحد الفهم مع الكندر وتذهب قراقر المعدة وسوء الهضم والرياح الغليظة وضعف الكبد والطحال وألم الكسر والخلع والوثى والقروح مطلقا وان طبخت فى الشيرج وقطرت فى الأذن فتحت السدد وأزالت الصمم مجرب وتلصق وان نجر بها قطن بل ماء ورد وجعل على العين سكنت الرمد والوجع مجرب وتعدل الأسنان واللثة كيف استعملت وان طبخت مع الزيت أزالت النافض والكزاز والرعشة والضربان والاعياء مجرب .

(٩) هو ما يعرف فى مصر باسم حبهان ، وفى الخليج والسعودية باسم الهيل ، وقد أورده داود فى تذكرته تحت اسم قاقلة . يقول الانطاكى :

(قاقلة) هو الهيلبوا والهال والشوشمير وهو حب يخرج فى أصل نحو دراعين عريض الاوراق خشن حاد الرائحة يكون فيه هذا الحب كما يرى بهذه الصورة مفرقا وهو ذكر مثلث الشكل بين طول واستدارة ينفرك عن الشكل المذكور وقد وصفت فيه الحبات كل واحدة كالعدسة لكنها ليست مفرطحة وانثى غلافها نحو اصبع مثلث أيضا ينفرك عن حب كالحمص ومنابت الكل أرض الدكن وجبال ملعقة ويدرك بشمس الأسد وتبقى قوته عشر سنين وهو حار يابس والصغير فى الثانية والكبير فى الثالثة يطيب =

عليـه ماء ورد قد أذيب فيه مسك ثم يجعـل عـلى الخرفان وبين خلالهـا عشرون دجـاجة وعشرون فروجـا وعشرون فرخا بعضـه مشـوى محشـو بالبيض وبعضـه محشـو باللحم وبعضه مطجن بماء الحصرم (١٠) أو بماء الليمون أو بنحو ذلك ، ثم يشور بالسنبوسـك (١١) والقماقم المحشوة باللحم بعضها وبالسـكر والحلوى بعضهـا ، وان شـئت أن تزيده خروفا آخر تتخذه شرائح فلا بأس وكذا جنبـا مقلوا ، فاذا نضد ذلك وصار كالفتة نضح عليه ماء ورد قد

= الفم ويزيل البخر والروائح الكريهة ويرد المعدة والكبد والرياح الغليظة والحصى أكلا والصرع سعوطا والقيء بماء الرمان والسدد بالسنكجبين ويفرح تفريحا عظيما خصوصا الكبار والصغير فى الهضم أجود وهو يضر السفل ويصلحه الكثيرا وشربتـه الى درهمين وبدله نصفه كبابة ومثله حب بلسان ·

(١٠) (حصرم) هو الأخضر من العنب وأجوده الخالى من الحلاوة ويدرك بحزيران وهو بارد يابس فى الثانية أو بيبسه فى الأولى يقمع الأخلاط الصفراوية والدوخة والعطش ويزيل الاسترخاء والترهل مطلقا ومبادىء الحصف والحكة دلكا خصوصا يابسه ويطيب العرق وماؤه فى ذلك أشد واذا طبخ به ورق الزيتون حتى يصير درهما قلع الأسنان اذا وضع عليها بلا آلة واذا عصر وجفف فى الشمس ورفع كانت هذه نافعـة من الخنـاق وأورام الحلق وإسترخاء المقعدة وسقوط اللهاة والرعاف وقذف الدم مطلقا والجـدرى والاسهـال المزمن شربا وطلاء وتصلح القلاع وتعرف برب الحصرم والأولى تجفيفها فى نحو الزجاج لا فى نحاس أحمر لأنه يضر الحوامل ومتى مزج هذا الماء أو العصارة الجافة بشيء من العسل ووضع فى الشمس كان شرابا جيدا كما نكر فى العصارة واذا حلت بماء الكراث جففت البواسير طلاء أو حملت فرزجة نقت الرحم وأصلحته بالغـا وهو يضر الصدر ويحدث السعال ويصلحه الجلنجبين وشراب الخشخاش واصلاحه أن لا يستعمل قبل سنة وشربة العصارة الى مثقال والشراب الى رطل وبدله ماء التفاح الحامض ·

(١١) (سنبوسك) باليونانية بزماورد وهو عجين يحكم عجنه بالأدهان كالشيرج والسمن ثم يرق ويحشى بلحم قد نعم طعمه وفوه ويزر ممزوجا بالبصل والشيرج يطوى عليه ويقلى فى الدهن أو يخبز وأجوده ما حمض بنحو الليمون وكان لحمـه صغيرا أو عمل من الدجاج وهو حار رطب فى الثانية والمخبوز يابس فى الأولى يغذى جيدا ويسمن ويربى الشحم ويقوى الأعصاب ويهيج الشهوة والمخبوز للمرطوبين أجود من المقلى والمقلى لأصحاب السواد والهزال أجود وهو ثقيل عسر الهضم يولد السـدد والرياح الغليظة واذا تجاوز بعد خبزه أكثر من يومين فى الصيف فلا يجوز تعاطيه ويصـلحه السكنجبين ·

أذيب فيه مسك وعود ، ثم غطى بالقسم الثانى من العجين بعد أن يمد رغيفا ويلحم بين الرغيفين كما يلحم الخشكنان بحيث لا يخرج منه نفس أصلا ، ثم يقرب الى رأس التنور حتى يتماسك عجينه ويبتدىء فى النضج فحينئذ ترسل الصينية فى التنور بعراها رويدا رويداء ويصبر عليه ريثما ينضج الخبز ويتورد ويحمر ثم يخرج ويمسح باسفنجة فيرش عليه ماء ورد ومسك ويرفع للأكل . وهذا الصنيع يصلح أن يحمل مع الملوك وأرباب الترف الى منضدياتهم النائية ومتنزهاتهم النازحة ؛ فانه وحده جملة فيها تفصيل سهل المحمل عسر التشعث جميل المنظر مشكور المخبر يحفظ الحرارة مدة طويلة .

وأما عوامهم فقلما يعرفون شيئا من ذلك ، وأكثر أغذيتهم الصبر والصحناة (١٢) والدلينس والخبز

---

(١٢) (صبر) بكسر الموحدة ويقال صبارة أضلاعه كالقرنبيط وأعرض وعلى أطرافه شوك صغار وتعيش أين وضعت كالعنصل وتكتفى بالهواء عن الماء واذا عتقت قام فى وسطها قضيب نحو ذراع يحمل ثمرا كالبلح الصغير أخضر ويحمر عند استوائه وهذا الثمر منه دقيق الطرفين يسمى انثى ومتناسب غليظ هو الذكر والصبر عصارة هذه الاضلاع وهو اما أصفر الى حمرة سريع التفتت براق طيب الرائحة وهو السقطرى أو صلب أغبر يسمى العربى أو كمدهش يسمى السمجانى بالمعجمة التحلية وهو ردىء والصبر من الأدوية الشريفة قيل لما جلبه الاسكندر من اليمن الى مصر كتب اليه المعلم أن لا تقيم على هذه الشجرة خادما غير اليونانيين لان الناس لا يدرون قدرها ، وأجود ما اعتصر فى السرطان ثم يوضع بعد التشميس فى الجلود وتبقى قوته أربع سنين وعلامة الحديث منه خلوه عن السودا وتخلقه بلون الكبد اذا نفخ فيه وهو حار يابس فى الثالثة أو الثانية يخرج الأخلاط الثلاثة وينقى الدماغ مع المصطكى والمفاصل بالعاريقون والربو وأوجاع الصدر وأمراض المعدة كلها والطحال والكلى ويقع فى الحبوب النفيسة ويقوى افعال الأدوية ويجذب من الاقاصى ويفتح السدد الى طريق الكبد ويحفظ الأبدان من البلى ويذهب رياح الاحشاء والحكة والجرب والقروح والقوابى والجنون والجذام والوسواس والبواسير والشقاق شربا والسقطة والضربة والاورام والآثار والنزلات والصداع والنملة والحمرة وانتشار الأواكل طلاء بعسل أو غيره ومع المرسين والسذاب يطول الشعر ويسوده ويمنع تساقطه ويقتل القمل وينبت الشعر بعد القراع مجرب ، واذا حل بالخل وغسل به اذهب السعفة والحزاز وداء الثعلب والاكتحال به يحد البصر ويذهب السلاق =

والنيدة ونحو ذلك وشرابهم البوظة وهـو نبيذ يتخـذ من القمح ، ومنهم أصناف يأكلون الفأر المتـولد في الصحارى والغيطان عند انحطاط النيل ويسـمونه سـماني الغيط ، وبالصعيد قوم يأكلون الثعابين والميتان من الحمير والدواب، وبأسافل الأرض قد يتخذ نبيذ من البطيخ الأخضر، وبدمياط يكثر أكل السمك ويطبخ بكل ما يطبـخ به اللحم من الرز والسماق والمدققات وغير ذلك ٠

آخر المقالة الأولى والحمد لله رب العالمين وصلى الله عـلى سيد المرسلين ٠

= والجرب والحرقة وغلظ الاجفان وان طبخ بماء الكواث وسلخ الحية أبرأ أمراض المقعدة جميعا وأسقط البواسير كيف استحمل وهو يبول الدم ويضر الشبان ويفسد الكبد ويبقى في طبقات المعدة سبعة أيام وتصلحه المصطكي والورد الأصفر والأفسنتين والزعفران وشربته مثقال وبدله حضض أو نصفه افسنتين وربعـه زعفران وان لا يستعمل منه غير السقطرى (صبار) التمر هندى ٠ أما (صحناه) لا تعرف الا بالعراق ويقرب منها ما يعمل بمصر ويسمى الملوحة ٠ وصنعته : أن يؤخذ السمك الصغار أو تقطع الكبـار صغارا وتترك ثلاثة أيام ثم تغمر بالماء والملح أياما حتى تنهرى فتصفى وترفع والملوحة تبقى صحيحة وكله حار يابس في أوائل الثانية يجفف الرطوبات ويذهب البخر ونتن الابط وينفع من الفالج وهى تعفن الخلط وتقرح وتعطش ويصلحها الزنجبيل بالخاصية والحلاوات ٠

المقالة الثانية

الفصل الأول

فى النيل وكيفية زيادته ونقصانه وقوانين ذلك

اعلم أن نيل مصر يمد وقت نضوب مياه الأرض وذلك فى شمس السرطان والأسد السنبلة ، فيعلو على الأرض ويقيم آياما فاذا نزل عنها حرثت وزرعت ، ثم يكثر الندى فى الليل جدا وبه يتغذى الزرع الى أن يحصد ، ونهاية ما تدعو اليه الحاجة من الزيادة ثمانى عشرة ذراعا فان زاد على ذلك ، فانه يروى أمكنة مستعلية وكأنه نافلة وعلى جهة التبرع ونهاية ما يزيد على جهة الندرة أصابع من عشرين ذراعا وعند ذلك تستبحر أمكنة يدوم مكث الماء عليها فتفوت زراعتها ويبور من البلاد مما عادته أن يزرع نحو مما روى مما عاداته أن يشرق ، ولنسم الثمانى عشرة نهاية الضرورى ولنسم العشرين نهاية الافراط وكل نهاية بين هاتين فلها ابتداء يقابلها • فابتداءالضرورى ست عشرة ذراعا ويسمى ماء السرطان ، اذ عنده يستحق الخراج ويدوى به نحو نصف البلاد ويغل من القوت بمقدار ما يحان أهل البلاد سننهم جمعا مع توسع ويروى سائر البلاد المعتادة بالرى بما زاد على ست عشرة ذراعا الى ثمانى عشرة ، وهذا يقل بمقدار

ما يمير أهل البلاد سنتين فصاعدا ، وأما ما نقص عن ست عشرة ذراعا فيروى به ما هو دون الكفاية ولا تحصل منه ميرة سنتهم ، ويكون تعذر القوت بمقدار نقصانه عن ست عشرة ذراعا .

وحينئذ يقال ان البلاد قد شرقت، واشتقاقها من قولهم شرقت الشمس اذا لمعت وظهرت ، وشرقت اللحم اذا نشرته ليجف ، ومنه قيل أيام التشريق لأن لحوم الأضاحى تشرق فيها أى تبسط ، ومنه أيضا قولهم شرق بالماء وبالشراب لأن الماء عند الاغتصاص وانسداد الحلق يظهر ويبرز ولا يلج ، ولما كانت الأرض فى السنة التى يوفى نيلها بارزة لا يسترها الماء ولا يخفيها الغمر قيل شرقت ولم تنغط ولم ينلها النيل، ويجوز أن يكون التشريق ريحا شرقية ؛ لأن الريح الشرقية والقبلية وهى الجنوب هما عندهم دليل نقص الماء وسببه والغربية البحرية وهى الشمال هما عندهم دليل الزيادة وسببها ، فيكون معنى قولهم شرقت البلاد أى كثر هبوب الرياح الشرقية حتى نسفت الماء وأظهرت الأرض، ثم سميت الأرض شرقية باسم الريح وجمعت على شراقى مثل كرسى وكراسى وبختى وبخاتى . وأما النيل فهو فعل من نال نيلا ومن نال ينول نولا ، يقال نولته تنويلا ونلته نولا اذا أعطيته ، والنيل اسم ما ينال مثل الرعى للمصدر والرعى لما يرعى وليس هذا من غرضنا ولكنه أمر عن فقلنا فيه .

فمتى نقص عن الست عشرة ذراعا فهو ابتداء التفريط المقابل للافراط ، وكنا قد سقنا فى الكتاب الكبير سنى الافراط والتفريط منذ الهجرة الى سنتنا هذه ، وأما هنا فانما نقص ما شاهدنا على ما شرطنا .

واتفق أن زيادة النيل بلغت سنة ست وتسعين وخمسمائة اثنتى عشرة ذراعا واحدى وعشرين اصبعا ، وهذا المقدار

نادر جدا ، فانه لم يبلغنا منذ الهجرة الى الآن أن النيل وقف على هذا الحد قط الا فى سنة ست وخمسين وثلثمائة ؛ فانه وقف على دون هذا المقدار بأربع أصابع ، وأما وقوفه على ثلاث عشرة ذراعا وأصابع، فانه وقع نحو ست مرات فى هذه المدة الطويلة ، وأما أربع عشرة ذراعا وأصابع ، فانه وقع نحو عشرين مرة ، وأما خمس عشرة ذراعا فأكثر من ذلك كثيرا ونحن نسوق أحوال زيادته فى هذه السنة أعنى سنة ست وتسعين وخمسمائة ، ثم نتبع ذلك بما حصل عندنا من علل ذلك وقوانينه ، فنقول ان العادة جارية أن تبتدىء الزيادة من أبيب وتعظم فى مسرى وتتناهى فى توت أو بابه ثم تنحط • فدخل أبيب فى هذه السنة وابتدأ النيل يتحرك بالزيادة وكان قبل ذلك بنحو شهرين قد بدت فى مائه خضرة سلقية ، ثم كثرت وظهرت فى رائحته ذفرة كريهة وعفونة طحلبية كأنه عصارة السلق اذا بقى أياما حتى يعفن وجعلت منه وعاء ضيق الرأس فعلاه سحابة خضراء فرفعتها برفق وتركتها تجف اذا بها طحلب لا شك فيه ، ويبقى الماء بعد رفع هذه السحابة غير صاف لا خضرة فيه الا أن طعمه وريحه باقيان ، وتجد فيه أيضا أجساما صغارا نباتية مبثوثة كالهباء ولا ترسب وصار أرباب الحمية يتجنبون شربه وانما يشربون ماء الآبار وأغليته بالنار ظنا منى أنه يصلح بذلك كما وصى الأطباء أن يفعل بالمياه المتغيرة فزاد طعمه وريحه كراهة وسهكا فوجدت عليه ، ذلك أن الأجزاء النباتية التى هى مبثوثة فيه يلطف الطبخ جوهرها فيختلط بالماء اختلاطا أشد عن الأول فيظهر التغير فى ريحه وطعمه أكثر ويصير ذلك بمنزلة الماء اذا طبخ فيه سلق أو فجل أو نحوه ، فان النار تمزج بين الماء ولطيف النبات ،

وأما الماء الذى يصلح بالطبخ واياه قصد الأطباء فهو الذى تغيره بمخالطته أجزا أرضية ، فانها تنفصل عنه بالطبخ لأن الماء حينئذ يلطف فترسب فيه ·

ثم انه دامت خضرته آياما من رجب وشعبان ورمضان، واضمحلت في شوال ، وكان يصحب الخضرة دود وحيوانات وهذا التغير فى الماء يكون بالصعيد أكثر لأنه أقرب الى المبدأ والمعدن ، وانتهت زيادته فى الحادى عشر من توت الى اثنتى عشرة ذراعا واحدى وعشرين اصبعا ثم انحط · وورد فى شوال رسول ملك الحبشة ومعه كتاب يتضمن موت مطرانهم ويلتمس عوضه ، وذكر فيه أن مطرهم فى هذه السنة ضعيف وأن النيل قليل المد لذلك ·

وكنا اقتصصنا فى ذلك الكتاب حال النيل فى هذه السنة وفى السنين الخوالى ، رجاء أن نعثر على نسب بينها وأعراض لها نقف منها على المتجددات من أحوال النيل فى سنى النقصان ، فيمكننا تقدمة المعرفة وأخذ الأهبة والانذار بالحوادث المتوقعة ، فان أقباط الصعيد يزعمون أنهم يتكهنون على مقدار الزيادة فى السنة من طين معلوم الوزن ينجمونه فى ليلة معروفة ويزنونه غدوة فيجدونه قد زاد فيحكمون من مقدار زيادته على مقدار زيادة النيل ، وقوم يتكهنون من حمل النحل ، وقوم من تعسيل النحل ·

فرأيت فى الغالب من حال القاع اذا كان أقل من المعتاد كانت الزيادة فى تلك السنة أقل من المعتاد هذا حكمه الأكثرى، فان أتت الخضرة فى أول زيادته وقبيلها ، قوى الظن بضعف جريته فان طالت أيام الخضرة وضعف مقدار الزيادة ، قوى الظن جدا بقلته فان دامت الخضرة فى أبيب أذن بقلة المد وعلة هذا ظاهرة ، أما كون قلة القاع دليلا على قلة

الزيادة ؛ فلأن المطر الذى هو علة الزيادة ينبغى أن يكـون فيه من الكثرة ما يرد القاع الى الحالة المعتـادة يزيد عليهـا الزيادة المعتادة وهـذه كثرة لا تفى بهـا أمطار كل سـنة ولا توجد كل وقت ، مثـاله أن القاع اذا كان ذراعا مثـلا فينبغى أن تكون الزيادة الى عشر أذرع وكون هذا أيسر من الأول . وأيضا ، فان جرية النيل الأصلية مادتها عيون ، وأما زيادته فمادتها أمطار ونقصان العيون دليل على احتراق السنة ويبس الهواء وقلة البخار فيقل المطر لذلك ، وأيضا فان المد الزائد على القاع أكثره فى الغالب ثلاث عشرة ذراعا فاذا كان القاع ذراعا أو ذراعين ثم زاد عليه أكثر المد وهو ثلاث عشرة ذراعا ، لم يلحق ماء السرطان .

وأما كون الخضرة دليلا على قلة الزيادة ، فلأن النيـل الماضى يغادر نقائع وغدرانا بعضها ينضب وبعضها يطحلب ويعطن ويأسن ، فاذا مرت بها أمطار ضعيفة اختلطت بهـا وصبتها الى النيل، ولم يكن فيها من الكثرة ما يغلب على النقائع فيصلحها بل النقائع تغلب على الأمطار المتصلة بها فتحيلهـا الى الفساد وينحط منها مقدار بعد مقدار ويتواصل الينـا ، وكلما كانت الأمطار أضعف وأقل كانت أيام جرى الخضرة أطول فاذا كانت أمطار قوية ، غسلت تلك المستنقعات وغلبت عليها وحورتها بسرعة مغمورة بطين تجرفه بقوتها فيخفى منظرها ، ويتعفى أثرها . وأيضا فان الأنهار الخارجة من جبل القمر تجتمع بأخـرى الى بركة عظيمـة ذات مسـاحة فسيحة ومن هذه البركة يخرج هذا النيل، ولا شك فى أن هذه البركة ملؤها دائم فيطحلب ولا سيما شطوطها وضحاضحها فاذا وقع الوسمى وجرى اليها سـيولة ، أثارت ما فى قعرها وحركت ما كان ساكنا فيها وانكسح أيضا ما فى الشطوط

الى الأوساط وانسحبت الى حمل الجرية فاستصحبته ، وأما كون الخضرة فى أبيب دليل النقصان فلأن أبيب مظنة الزيادة وغلبة الماء على هذه الأوشاب فاذا بقى على خضرته ابان زيادته أذن بقلته ، وهـذه الأجزاء النباتية التى تصحب المـاء انما هى حطام النبات المتكون فى الماء وحوله كالبردى والديس(١) والسمار المطحلب وغير ذلك فتعفن فيه وتصـفر أجـزاؤه وتنبعث معه ، ومما يوجب انبعاثها أيضا نقصان الماء من تلك البركة فان ماءها اذا قل اتصلت الجرية بقعرها فانسـحب كدرها وراسبها ، واذا كانت غمرا كانت الجرية من أعلاها وصفوها فاعرف ذلك • ولهذا لا تأتى هذه الخضرة الا فى السنة التى يحترق فيها النيل وكلما كان احتراقه أشد ، كان ظهور الخضرة أكثر وفى السنة التى يكـون نيلهـا غمرا لا يحترق لا ترى الخضرة ؛ لأن كثرته لكثرة مبدية وارتفاع جريه عن مقر كدورته •

فاذا اجتمعت هذه الدلائل كلها أو جلهـا فى سنة فظن ظنا قويا بأن الزيادة قليلة فيها فهذه فائدة هذا الاقتصاص ، وفيه فوائد أخر منها أن من يأتى بعد اذا أضافه الى ما يشاهده، يوشك أن يعثر منه على مناسبة أو دلالة أخرى على مقـدار الزيادة والنقصان فى كل سنة ، ومنها ان أصحاب الأحـكام النجومية اذا تأملوا المدد التى بين النقصـانات والـزيادات واعتبروا أحوال الكواكب والاقترانات فيهـا وطوالع مصر وبلاد السودان وارباب الولايات فيها من الكواكب ومزجوا ذلك، أمكن أن تقوم لهم مما يتكرر صورة تجريبية فى مقدار الزيادة والنقصــان فانى الى الآن لم أر لمنجمى مصر بذلك

---

(١) الديس عامية ، وهو جنس نبات من الفصيلة السعدية ويقال له ايضا أسل الخب Scripe ، معجم خياط •

عناية ، ولم أجد عندهم ما تسكن اليه النفس سوى كسر ولا ينبنى على أصل ٠

فانه بهذا الطريق استخرج معظم أحكام النجوم ، وذلك أنهم شاهدوا حوادث أرضية تقترن بنصبات فلكية وحركات علوية ورصدوا ذلك فألفوه يتكرر ؛ فنسبوا تلك الحوادثالى تلك الهيئات والنصبات فصاروا متى عثروا فى تسييرهم لحركات الأشخاص العلوية على مثل تلك النصبة والهيئة حكموا بوقوع مثل تلك الحادثة ٠

ويروى عن أهل التجربة من قدماء الأقباط أنه اذا كان الماء فى اثنى عشر يوما من مسرى اثنتى عشرة اصبعا من اثنتى عشرة ذراعا فهى سنة ماء والا فالماء ناقص ، ورأيت بعض من شرح الثمرة لبطليموس ذكر فى تفسير الكلمة الأخيرة التى يقول فى أولها : النيازك تدل على جفاف الأبخرة فاذا كان فى جهة واحدة دلت على رياح تعرض فى تلك الجهة واذا كانت شائعة فى الجهات كلها ، دلت على نقصان المياه واضطراب الهواء وعلى جيوش تختلف، فقال هذا المفسر: انى لأذكر فى سنة تسعين ومائتين أن الشهب بمصرانتثرت وعمت الجو بأسره فارتاع الناس ولم تزل تكثر فلم يمض لذلك جزء من السنة يسير حتى ظمىء الناس وبلغ نيل مصر ثلاث عشرة ذراعا واضطرب الناس اضطرابا ، زالت به دولة الطولونى من مصر وانتثرت فى سنة ثلثمائة من سائر جهات الجو فنقص النيل أيضا ووقعت همرجات واضطراب فى المملكة ، وهذه لعمرى دلائل قوية ولكنها عامة لجميع الأقاليم وليست خاصة بمصر فقط ٠ على أنه أيضا قد وقع هذا الحادث بعينه فى سنتنا هذه من تناثر الكواكب فى أولها ونشيش الماء فى آخرها وتغير ملك لمصر فيها بعمه الملك العادل بعد حرب كانت بينهما ٠

الفصـــل الثـــانى

فى حوادث سنة خمس وتسعين وخمسمائة

ودخلت سنة سبع مفترسة أسـباب الحيـاة ، وقد يئس الناس من زيادة النيل وارتفعت الأسعار وأقحطت البـلاد وأشعر أهلها البلاء وهرجوا من خوف الجوع وانضوى أهل السواد والريف الى أمهات البلاد وانجلى كثير منهم الى الشام والمغرب والحجـاز واليمن وتفرقوا فى البـلاد ومزقوا كل ممزق ، ودخـل الى القـاهرة ومصر منهـم خلق عظيـم ، واشتد بهم الجوع ووقع فيهم الموت ، وعنـد نزول الشـمس الحمل وبىء الهواء ووقع المرض والموتان واشتد بالفقراء الجوع حتى أكلوا الميتات والجيف والكلاب والبعر والآرواث، ثم تعدوا ذلك الى أن أكلوا صـغار بنى آدم فكثيرا ما يعثر عليهم ومعهم صـغار مشـويون أو مطبوخون ، فيأمر صاحب الشرطة باحراق الفاعل لذلك والآكل ٠

ورآيت صغيرا مشويا فى قفة ، وقد أحضر الى دار الوالى ومعه رجل وامراة يزعم الناس أنهما أبواه فأمر باحراقهما ٠

ووجد فى رمضان وبمصر رجل وقد جردت عظامه عن اللحم ، فأكل وبقى قفصا كما يفعل الطباخون بالغنم ، ومثل هذا أعوز جالينوس مشـاهدته ولذلك تطلبـه بكل حيلة ،

وكذلك كل من آثر الاطلاع على علم التشريح ، وحينما نشأ م الفقراء فى أكل بنى آدم كان الناس يتناقلون أخبارهم ويفيضون فى ذلك استفظاعا لأمره وتعجبا من ندوره • ثم اشتد قربهم اليه واعتيادهم عليه بحيث اتخذوه معيشة ومطية ومدخرا وتفننوا فيه • وفشا عنهم ووجد بكل مكان من ديار مصر : فسقط حينئذ التعجب والاستبشاع واستهجن الكلام فيه والسماع له •

ولقد رأيت امرأة يسحبها الرعاع فى السوق وقد ظفر معها بصغير مشوى تأكل منه ، وأهل السوق ذاهلون عنها ومقبلون على شئونهم وليس فيهم من يعجب لذلك أو ينكره ؛ فعاد تعجبى منهم اشد وما ذلك الا لكثرة تكرره على احساسهم حتى صار فى حكم المألوف الذى لا يستحق أن يتعجب منه •

ورأيت قبل ذلك بيومين صبيا نحو الرهاق مشويا وقد أخذ به شابان أقرا بقتله وشيه وأكل بعضه •

وفى بعض الليالى بعد صلاة المغرب كان مع جارية فطيم تلاعبه لبعض المياسير فبينما هو الى جانبها ، اهتبلت غفلتها عنه صعلوكة فبقرت بطنه ، وجعلت تأكل منه نيا • وحكى لى عدة نساء أنه يتوثب عليهن لاقتناص أولادهن ويحامين عنهم بجهدهن •

ورأيت مع امرأة فطيما لحيما فاستحسنته وأوصيتها بحفظه ، فحكت لى أنها بينا تمشى على الخليج انقض عليها رجل جاف ينازعها ولدها فترامت على الولد نحو الأرض حتى أدركها فارس وطرده عنها ، وزعمت أنه كان يهم بكل عضو يظهر منه أن يأكله وأن الولد بقى مدة مريضا لشدة تجاذبه بين المرأة والمفترس ، وتجد أطفال الفقراء وصبيانهم ممن لم يبق له كفيل ولا حارس منبثين فى جميع أقطار البلاد وأزقة

الدروب كالجراد المنتشر ، ورجال الفقراء ونساؤهم يتصيدون هؤلاء الصغار ويتغذون بهم وانما يعثر عليهم فى الندرة واذا لم يحسنوا التحفظ ٠

وأكثر ما كان يطلع من ذلك مع النساء وما أظن العلة فيه الا أن النساء أقل حيلة من الرجال وأضف عن التباعد والاستتار ٠ ولقد أحرق بمصر خاصة فى أيام يسيرة ثلاثون امرأة كل منهن تقر أنها أكلت جماعة ، فرأيت امرأة قد أحضرت الى الوالى وفى عنقها طفل شوى فضربت أكثر من مائتى سوط على أن تقر فلا تحير جوابا ، بل تجدها قد انخلعت عن الطباع البشرية ثم سحبت فماتت ٠

واذا أحرق آكل أصبح وقد صار مأكولا لأنه يعود شواء ويستغنى عن طبخه ٠

ثم فشا فيهم أكل بعضهم بعضا حتى فنى أكثرهم ، ودخل فى ذلك جماعة من المياسير والمساتير منهم من يفعله حاجة ومنهم من يفعله استطابة ٠ وحكى لنا رجل أنه كان له صديق أدقع فى هذه النازلة فدعاه صديقه هذا الى منزله لياكل عنده على ما جرت به عادتهما قبل ، فلما دخل منزله وجد عنده جماعة عليهم رثاثة الفقر وبين أيديهم طبيخ كبير اللحم وليس معه خبز ؛ فرابه ذلك وطلب المرحاض فصادف عنده خزانة مشحونة برمم الآدمى وباللحم الطرى فارتاع وخرج فارا ٠

وظهر من هؤلاء الخبثاء من يصيد الناس بأصناف الحبائل ويجتلبونهم الى مكانهم بأنواع المخاتل(١)، وقد جرى ذلك لثلاثة من الأطباء ممن ينتابنى ، أما أحدهم فان أباه

(١) الحيل والخداع ٠

خرج فلم يرجع، وأما الآخر فان امرأة أعطته درهمين على أن يصحبها الى مريضها فلما توغلت به مضايق الطرق استراب وامتنع عنها وشنع عليها فتركت درهميها ، وأما الثالث فان رجلا استصحبه الى مريضه فى الشارع بزعمه وجعل فى أثناء الطريق يصدف بالكسر ويقول اليوم يغتنم الثواب ويتضاعف الأجر ولمثل هذا فليعمل العاملون ، ثم كثر حتى ارتاب منه الطبيب ومع ذلك فحسن الظن بقلبه وقوة الطمع تجذبه ، حتى أدخله دارا خربة فزاد استشعاره وتوقف فى الدرج وسبق الرجل فاستفتح ، فخرج اليه رفيقه يقول له : هل مع ابطائك حصل صيد ينفع ، فخرج الطبيب لما سمع ذلك ، وألقى نفسه الى اصطبل من طاقة صادفها السعادة فقام اليه صاحب الاصطبل يسأله عن قضيته فأخفاها عنه خوفا منه أيضا ، فقال : قد علمت حالك فان أهل هذا المنزل يذبحون الناس بالحيل .

ووجد بأطفيح(٢) عند عطار عدة خوابى مملوءة بلحم الآدمى وعليه الماء والملح فسألوه عن علة اتخاذه والاستكثار منه، فقال : خفت اذا دام الجدب أن يهزل الناس وكان جماعات من الفقراء قد آووا الى الجيزة وتستروا ببيوت طين ، يتصيدون فيها الناس وفطن لهم وطلب قتلهم فهربوا ، ووجد فى بيوتهم من عظام بنى آدم شىء كثير ، وخبرنى الثقة الذى وجد فى بيوتهم أربعمائة جمجمة .

ومما شاع وسمع من لفظ الوالى أن امرأة أتته سافرة مذعورة تذكر أنها قابلة ، وأن قوما استدعوها وقدموا لها صحنا فيه سكباج محكم الصنعة مكمل التوابل فألفته كثير اللحم ، مباينا اللحم المعهود فتقززت منه ثم وجدت خلوة

---

(٢) من قرى مركز الصف بالجيزة . القاموس الجغرافى ، ق ٢ ، ج ٣ ، ص ٢٥ .

ببنت صغيرة فسألتها عن اللحم ، فقالت انها فلانة السمينة دخلت لتزورنا فذبحها أبى وها هى معلقة اربا ، فقامت القابلة الى الخزانة فوجدتها أنابير لحم فلما قصت على الوالى القصة أرسل معها من هجم الدار وأخذ من فيها وهرب صاحب المنزل ثم صانع عن نفسه فى خفية بثلثمائة دينار ليحقن بذلك دمه ٠

ومن غريب ما حدث من ذلك ، أن امرأة ذات مال ويسار كانت حاملا وزوجها غائب فى الخدمة وكان يجاورها صعاليك فشمت عندهم رائحة طبخ فطلبت منه كما هى عادة الحبالى فألفته لذيذا فاستزادتهم ، فزعموا أنه نفد فسألتهم عن كيفية عمله فأسروا اليها أنه لحم بنى أدم فواطأتهم على أن يتصيدوا لها الصغار وتجزل لهم العطاء فلما تكرر ذلك منها فضريت وغلبت عليها الطباع السبعية وشى بها جواريها خوفا منها ؛ فهجم عليها فوجد عندها من اللحم والعظام ما يشهد بصحة ذلك فحبست مقيدة وأرجىء قتلها احتراما لزوجها وابقاء على الولد فى جوفها ٠

ولو أخذنا نقص كل ما نرى ونسمع لوقعنا فى التهمة أو فى الهذر ، وجميع ما حكيناه مما شاهدناه لم نتقصده ولا تتبعنا مظانه وانما هو شىء صادفناه اتفاقا بل كثيرا ما كنت أفر من رؤيته لبشاعة منظره ٠

وأما من يتحين ذلك بدار الوالى فانه يجد منه أصنافا تحضر مع آناء الليل والنهار؛ وقد يوجد فى قدر واحدة اثنان وثلاثة وأكثر ، ووجد بعض الأيام قدر فيها عشر أيد كما تطبخ أكارع الغنم ، ووجد مرة أخرى قدر كبيرة وفيها رأس كبير وبعض الأطراف مطبوخا بقمح وأصناف من هذا الجنس تفوت الاحصاء ٠

وكان عند جامع ابن طولون قوم يتخطفون الناس ووقع في حبالتهم شيخ كتبي بدين ممن يتبيعنا الكتب فأفلت بجريعة الذقن. وكذلك بعض قوام جامع مصر وقع في حبالة قوم آخرين بالقرافة فتداركه الناس فخلص من الوهق وله حصاص وأما من خرج من أهله فلم يرجع اليهم فخلق كثير ! وحكى لي من أثق به أنه اجتاز على امراة تجرية(٣) وبين يديها ميت قد انتفخ وتفجر وهي تأكل من أفخاذه فأنكر عليها فزعمت أنه زوجها ، وكثير ما يدعي الآكل أن المأكول ولده أو زوجه أو نحو ذلك ، ورئي مع عجوز صغير تأكله فاعتذرت بأن قالت انما هو ولد ابنتي وليس بأجنبي مني ولأن آكله أنا خير من أن يأكله غيري .

وأشباه هذا كثير جدا حتى انك لا تجد أحدا في ديار مصر الا وقد رأى شيئا من ذلك ، حتى أرباب الزوايا والنساء في خدورهن .

ومما شاع أيضا نبش القبور وأكل الموتى وبيع لحمهم.

وهذه البلية التي شرحناها وجدت في جميع بلاد مصر ليس فيها بلد الا وقد أكل فيه الناس أكلا ذريعا من أسوان وقوص والفيوم والمحلة والاسكندرية ودمياط وسائر النواحي .

وخبرني بعض أصحابي وهو تاجر مأمون حين ورد من الاسكندرية بكثرة ما عاين بها من ذلك . وأعجب ما حكى لي أنه عاين آرؤس خمسة صغار مطبوخة في قدر واحدة بالتوابل الجيدة . وهذا المقدار من هذا الاقتصاص كاف فاني وان كنت قد أسهبت أعتقد أني قد قصرت .

---

(٣) من قبائل تجرى Tigre الحبشية أى أصلها حبشى .

وأما القتل والفتك فى النواحى فكثير فاش فى كل فج ولا سيما طريق الفيوم والاسكندرية ، وقد كان بطـريق الفيوم ناس فى مراكب يرخصون الأجرة على الركاب فاذا توسطوا بهم الطرق ذبحوهم وتساهموا أسلابهم ، وظفر الوالى منهم بجماعة فمثل بهم ، وأقر بعضهم عندما أوجع ضربا أن الذى خصه دون رفقائه ستة آلاف دينار ٠

وأما موت الفقراء هزالا وجوعا ، فأمر لا يطيق عمله الا الله سبحانه وتعالى وانما نذكر منه كالأنموذج يستدل به اللبيب على فظاعة الأمر ٠

فالذى شاهدناه بمصر والقاهرة وما تاخم ذلك أن الماشى أين كان لا يزال يقع قدمه أو بصره على ميت ومن هـو فى السياق أو على جمع كثير بهذا الحال ، وكان يرفع عن القاهرة خاصة الى الميضأة كل يوم ما بين مائة الى خمسمائة ، وأما مصر فليس لموتاها عدد ويرمون ولا يوارون ٠ ثم بآخـرة عجز عن رميهم فبقوا فى الأسـواق بين البيـوت والدكاكين وفيها الميت منهم قد تقطع والى جانبه الشواء والخباز ونحوه ٠

وأما الضواحى والقرى، فانه هلك أهلها قاطبة الا ماشاء الله ، وبعضهم انجلى عنها اللهم الا الأمهات والقرى الكبـار كقوص والأشمونين والمحلة ونحو ذلك ، ومع هذا أيضا فلم يبق فيها الا محلة القسم وان المسافر ليمر بالبلدة فلا يجد فيها نافخ ضرمة ويجد البيوت مفتحة وأهلها موتى متقابلين، بعضهم قد رم وبعضهم طرى وربما وجد فى البيت أثاثه وليس له من يأخذه ٠

حدثنى بذلك غير واحد كل منهم حكى ما يعضد به قول الآخر ، قال أحدهم : دخلنا مدينة فلم نجد فيها حيوانا فى الأرض ولا طائرا فى السماء فتخللنا البيوت؛ فألفينا أهلها كما

قال الله عز وجل : «**جعلناهم حصيدا خامدين**» فتجد ساكنى كل دار موتى فيها الرجل وزوجته وأولاده ، قال : ثم انتقلنا الى بلد آخر ذكر لنا أنه كان فيه أربعمائة دكان للحياكة فوجدناها كالتى قبلها فى الخراب ، وان الحائك ميت وأهله موتى حوله ، فحضرنى قوله تعالى : « **ان كانت الا صيحة واحدة فاذا هم خامدون** » قال : ثم انتقلنا الى بلد آخر فوجدناه كالذى قبله ليس به أنيس وهو مشجون بموت أهله ، قال : واحتجنا الى الاقامة به لأجل الزراعة فاستأجرنا من ينقل الموتى مما حولنا الى النيل كل عشرة بدرهم ، قال ولكن قد بدلت البلاد بالذئاب والضباع ترفع لحوم أهلها •

ومن عجيب ما شاهدت أنى كنت يوما مشرفا على النيل مع جماعة فاجتاز علينا فى نحو ساعة نحو عشرة موتى كأنهم القرب المنفوخة هذا من غير أن نتصدى لرؤيتهم ولا أحطنا بعرض البحر ، وفى غد ذلك اليوم ركبنا سفينة فرأينا أشلاء الموتى فى الخليج وسائر الشطوط كما شبهها ابن حجر بأنابيش العنصل(٤) وخبرت عن عياد بفرضة تنيس أنه مر به فى بعض نهار أربعمائة غريق يقذف بهم النيل الى البحر الملح ، وأما طريق الشام فقد تواترت الأخبار أنها صارت مزرعة لبنى آدم بل محصرة ، وانه عادت مأدبة بلحومهم للطير والسباع وان طلابهم التى صحبتهم من منجلاهم هى التى تأكل فيهم •

وأول من هلك فى هذه الطريق أهل الحرف عندما انتجعوا الى الشام وانتشروا فى هذه المسافة مع طولها

---

(٤) العنصل بفتح العين وضم الصاد أو فتحها البصل البرى والجمع عناصل (ابن منظور) •

كالجراد المحسوس ، ولم تزل تتواصل هلكاهم الى الآن وانتهى انتجاعهم الى الموصل وبغـداد وخراسـان والى بلاد الروم والمغرب واليمن ومزقوا كل ممزق ٠

وكثيرا ما كانت المرأة تملص من صـبيتها فى الزحام فيتضورون حتى يموتوا ٠

وأما بيعَ الأحرار فشاع وذاع عند من لا يراقب الله ، حتى تباع الجارية الحسناء بدراهم معدودة ، وعرض عـلى جاريتان مراهقتان بدينار واحد ، ورأيت مرة أخرى جاريتين احداهما بكر ينادى عليهما بأحد عشر درهما ٠

وسألتنى امرأة أن أشـترى ابنتهـا وكانت جميلة دون البلوغ بخمسة دراهم فعرفتها أن ذلك حرام ، فقالت خذها هدية وكثيرا ما يترامى النساء والولدان الذين فيهم صباحة على الناس بأن يشتروهم أو يبيعوهم ، وقد استحل ذلك خلق عظيم ووصل سبيهم الى العراق وأعماق خراسان وغير ذلك ٠

وأعجب من جميع ما اقتصصناه أن الناس مع ترادف هذه الآيات عاكفون على أصنام شهواتهم لا يرعوون منغمسون فى بحر ضلالاتهم ، كانهم هم المستثنون ٠ فمن ذلك اتخاذهم بيع الأحرار متجرا ومكتسبا ومنه عهارهم بهؤلاء النسوة حتى ان منهم من يزعم أنه افتض خمسين بكرا ومنهم من يقول سبعين كل ذلك بالكسر (٥) ٠

وأما خراب البلاد والقرى وخلو المسـاكن والدكاكين فهو مما يلزم هـذه الجملة التى اقتصصـناها وناهيك أن القرية التى كانت تشتمل على زهاء عشرة آلاف نسـمة تمر

---

(٥) أى بمبلغ يسير أى كسر الدرهم أو الدينار ٠

عليها فتراها دمنة وربما وجد فيها وربما لم يوجد، وأما مصر فخلا معظمها وأما بيوت الخليج وزقاق البركة وحلب والمقس وما تاخم ذلك فلم يبق فيها بيت مسكون أصلا بعد ما كان كل قطر منها قدر مدينة زحمة من الناس، حتى ان الرباع والمساكن والدكاكين التى فى سرة القاهرة وخيارها أكثرها حال خراب وان ربعا فى أعمر موضع بالقاهرة فيه نيف وخمسون بيتا كلها خالية سوى أربعة بيوت أسكنت من يحرس الموضع .

ولم يبق لأهل المدينة وقود فى تنانيرهم وأفرانهم وبيوتهم الا خشب السقوف والأبواب والزروب (٦) .

ومما يقضى منه العجب أن جماعة من الذين مازالوا مجدودين سعدوا فى دنياهم هذه السنة فمنهم من أثرى بسبب متجره فى القمح ، ومنهم من أثرى بسبب مال انتقل اليه بالارث ، ومنهم من حسنت حاله لا بسبب معروف . فتبارك من بيده القبض والبسط ولكل مخلوق من عنايته قسط .

وأما خبر النيل فى هذه السنة ، فانه احترق فى برمودة احتراقا كثيرا وصار المقياس فى أرض جزر وانحسر الماء عنه نحو الجيزة ، وظهر فى وسطه جزيرة عظيمة طويلة ومقطعات أبنية وتغير الماء فى ريحه وطعمه ثم تزايد التغير ثم انكشف أمره عن خضرة طحلبية كلما تطاولت الأيام ظهرت وكثرت كالتى ظهرت فى أبيب السنة الخالية ، ولم تزل الخضرة تتزايد الى آخر شعبان ثم تناقصت الى أن ذهبت وبقى فى الماء أخيرا نباتية منبثة فقط وطاب طعمه وريحه ثم أخذت فى رمضان

---

(٦) جمع زريبة وهى مكان الماشية والدواب .

تنمى وتقوى جريته الى اليوم السادس عشر منه ، فقاس فيه ابن أبى الرداد قاع البركة فكان ذراعين وأخذ فى زيادة ضعيفة بأضعف من السنة الخالية ولم يزل فى زيادة ضعيفة الى ثامن ذى القعدة وهو السابع عشر من مسرى فزاد اصبعا ثم وقف ثلاثة أيام ؛ فأيقن الناس بالبلاء واستسلموا للهلكة ثم أخذ فى زيادات قوية أكثرها ذراع الى ثالث ذى الحجة وهو السادس من توت فبلغ خمس عشرة ذراعا وست عشرة اصبعا ثم انحط من يومه وانهزم على فوره ، ومس بعض البلاد محلة القسم فكأنما زارها طيف خياله فى الحلم .

وانما انتفع به ما كان من البلاد مطمئنا فأروى المنخفضات كالغربية ونحوها، غير أن القرى خالية من فلاح أو حراث أصلا فهم كما قال الله تعالى : « **فأصبحوا لا يرى الا مساكنهم** » ، وانما أرباب الحراث يجمعون شذاذهم ويلتقطون أفرادهم، وقد عز الحراث والبقر جدا حتى يباع الثور الواحد بسبعين دينارا والهزيل بدون ذلك وكثير من البلاد ينحسر عنه الماء بغير حقه ولغير وقته ؛ اذ ليس لها من يمسك الماء ويحبسه فيها فتبور لذلك مع ريها وكثير مما روى يبور لعجز أهله عن تقاويه والقيام عليه ، وكثير مما زرع أكلته الدودة وكثير مما سلم منها ضوى وعطب .

ونهاية سعر القمح فى هذه السنة خمسة دنانير ، وأما بقوص والاسكندرية فبلغ ستة دنانير .

ومن الله سبحانه يرجي الفرج وهو المتيح للخير بمنه وجوده .

الفصـــل الثـــالث

فى حوادث سنة ثمان وتسعين وخمسمائة

ودخلت هذه السنة والأحوال التى شرحناها فى السـنة الخالية عـلى ذلك النظـام أو فى تزايد ، الى زهاء نصـفها فتناقص موت الفقراء لقلتهم لا لارتفاع السـبب المـوجب وتناقص آكل بنى آدم ثم انقطع خبره أصلا .

وقل خطف الأطعمة من الأسواق وذلك لفناء الصعاليك(١) وقلتهم من المدينة ، وانحطت الأسـعار حتى عاد الاردب بثلاثة دنانير لقلة الآكلين لا لكثرة المأكول ، وصفت المدينـة بأهلها ، واختصرت واختصر جميع ما فيها على تلك النسبة وألف الناس البلاء واستمروا على البلاء حتى عاد ذلك كأنه مزاج طبيعى .

وحكى لى أنه كان بمصر تسعمائة منسج للحصر ، فلم يبق الا خمسة عشر منسجا ، وقس على هذا سائر ما جـرت العادة أن يكون بالمدينة من باعة وخبازين وعطارين وأساكفة وخياطين وغير ذلك من الأصناف ، فانه لم يبق من كل صنف من هؤلاء الا نحو ما بقى من الحصريين أو أقل من ذلك .

---

(١) المقصود اهل البلاد وليس المماليك . راجع مقدمة المحقق .

وأما الدجاج فعـدم رأسا لولا أنه جلب منـه شىء من الشام ، وحكى لى أن رجلا مصريا شـارف الفقر فألهم أن اشترى من الشام دجاجا بستين دينارا ، وباعها بالقـاهرة على القماطين بنحو ثمانمائة دينار ، ولما وجد البيض بيع بيضة بدرهم ثم بيضتين ثم ثلاثا ثم أربعا واستمر على ذلك، وأما الفراريج فبيع الفروج بمائة درهم ولبث برهة يبـاع الفروج بدينار فصاعدا ٠

وأما الأفران فانها توقد بأخشاب الدور، فيشترى الفران الدار بالثمن البخس ويقد زروبه وأخشابه أياما ثم يشترى آخر ، وربما كان فيهم من تنشطه نذالته فيخرج ليلا يجوس خلال الديار فيحتطبها ولا يجد ذاعرا ٠

وكثيرا ما تقفر الدار بمالكها ولا يجد لها مشتريا فيفصل أخشابها وأبوابها وسائر آلاتها فيبيعها ثم يطرحها مهدومة وكذلك أيضا يفعلون بدور الكسرا ٠

وأما الهلالية ومعظـم الشـارع ودور الخليـج وحارة الساسة والمقس وما تاخم ذلك فلم يبق فيها أنيس ، وانما ترى مساكنهم خاوية على عروشـها وكثيرا من أهلهـا موتى فيها ٠ ومع ذلك فالقاهرة بالقياس الى مصر فى غاية العمارة وأهلها فى غاية الكثرة ٠

وأما الضواحى وسائر البـلاد فيباب رأسـا ، حتى ان المسافر يسير فى كل جهة أياما لا يصادف حيوانا الا الرمم ما خلا البـلاد الكبـار كقوص وأخميم والمحلة ودميـاط والاسكندرية ، فان فيها بقايا وأما ما عدا هذه وأمثالها فان البلد الذى كان يحتوى على ألوف خال أو كالخالى ٠

وأما الأملاك ذوات الأجر المعتبرة ، فان معظمها خلا أو لم يبق دأب أهلها الا حراستها بسد أبوابها وتحصين مسالكها

أو اسكانها من يحرسها بأجرة ، اللهم الا ما كان من الملك فى قصبة المدينة فان بعضه مسكون بأخف أجرة ، وأعرف ربعاً فى أعمر موضع بالمدينة كانت أجرته فى الشهر مائة وخمسين دينارا ، فعادت فى هذه السنة الى نحو عشرين دينارا ، وآخر فى مثل موضعه كانت أجرته فى الشهر ستة عشر دينارا ، فعادت الى فويق الدينار ، وجميع ما لم نذكره على هذا القياس افهمه ٠

والذى دخل تحت الاحصاء من الموتى ممن كفن وجرى له اسم فى الديوان وضمته الميضات فى مدة اثنين وعشرين شهرا أولها شوال من سنة ست وتسعين ، وآخرها رجب من سنة ثمان وتسعين ، مائة ألف واحدى عشرة ألفا الا آحادا وهذا مع كثرته نزر فى جنب الذين هلكوا فى دارهم وفى أطراف المدينة وأصول الحيطان ، وجميع ذلك نزر فى جنب من هلك بمصر وما تاخمها ، وجميع ذلك نزر فى جنب من أكل فى البلدين ، وجميع ذلك نزر جدا فى جنب من هلك وأكل فى سائر البلاد والنواحى والطرقات وخاصة طريق الشام ، فانه لم يرد أحد من ناحية فسألته عن الطرق الا ذكر أنها مزروعة بالأشلاء والرمم وهكذا ما سلكته منها ٠

ثم انه وقع بالفيوم والغربية ودمياط والاسكندرية موتان عظيم ووباء شديد لا سيما عند وقت الزراعة ، فلعله يموت على المحراث الواحد عدة فلاحين ، وحكى لنا أن الذين بذروا غير الذين حرثوا وكذلك الذين حصدوا ٠

وباشرنا زراعة لبعض الرؤساء فأرسل من يقوم بأمر الزراعة فجاء الخبر بموتهم أجمعين ، فأرسل عوضهم فمات أكثرهم ، هكذا مرات فى عدة جهات وسمعنا من الثقات عن الاسكندرية أن الامام صلى يوم الجمعة على سبعمائة جنازة ،

وان تركة واحدة انتقلت فى مدة شهر الى أربعة عشر وارثا، وان طائفة كبيرة من أهلها تزيد على عشرين ألفا انتقلوا الى برقة وأعمالها فعمروها وقطنوها ، وهذه برقة كانت مملكة عظيمة وخربت فى زمن اليازورى (٢) وعلى يديه ، وكان وزيرا ظالما، فجلا عنها أهلها وسكن كثير منهم بالاسكندرية ، وكان هذا الحادث تقاص فى الطبيعة .

ومن عجيب ما اتفق لشيخ من أطباء يهود مصر ممن ينتابنى سوى من سبق ذكرهم أن استدعاه رجل زبونه ذو شارة وشهرة بستر ودين وجدة ، فلما حصل فى المنزل أغلق الباب ووثب عليه فجعل فى عنقه وهقا ومرت المريض خصيتيه غير أنه لم تكن له معرفة بالقتل فطالت المناوشة وعلا ضجيجه فتسامع الناس ودخلوا ، فخلصوا الشيخ وبه رمق يسير وقد كسرت ثنيتاه وحمل الى منزله مغشيا عليه وأحضروا الفاعل الى الوالى فسأله ما حملك على ما فعلت ، فقال : الجوع فضربه ونفاه .

واتفق سحرة يوم الاثنين السادس والعشرين من شعبان وهو الخامس والعشرون من بشنس ان حدثت زلزلة عظيمة اضطرب لها الناس ، فهبوا من مضاجعهم مدهوشين وضجوا الى الله سبحانه ولبثت مدة طويلة وكانت حركتها كالغربلة أو كخفق جناح الطائر وانقضت على ثلاث رجفات قوية مادت بها الأبنية واصطفقت الأبواب وصرصرت السقوف والأخشاب وتداعى من الأبنية ما كان واهيا أو

---

(٢) الحسن بن على بن عبد الرحمن ، أبو محمد اليازورى وزير من الدهاة ولى فى يازور (من قرى الرملة بفلسطين) سكن الرملة وولى الحكم بها واتصل بالمستنصر الفاطمى فاستوزره سنة ٤٤٢ هـ وجعله قاضى القضاة . وهو الذى دبر فتنة البساسيرى وأثاره على العباسيين واستمر فى الوزارة الى أن قبض عليه المستنصر بسبب وشاية وقتله سنة ٤٥٠ هـ / ١٠٥٨ م . الأعلام للزركلى ، ج ٢ ، ص ٢٠٢ .

مشرفا عاليا ثم عاودت فى نصف نهار يوم الاثنين ، الا أنها لم يحس بها أكثر الناس لخفائها وقصر زمانها وكان فى هذه الليلة برد شديد يحوج الى دثار خلاف العادة ، وفى نهار ذلك اليوم تبدل بحر شديد وسموم مفرط يضيق الأنفاس ويأخذ بالكظم وقلما تحدث زلزلة بمصر بهذه القوة .

ثم أخذت الأخبار تتواتر بحدوث الزلزلة فى النواحى النائية والبلاد النازحة فى تلك الساعة بعينها ؛ ولذا صح عندى انها حركت فى ساعة واحدة طابقة من قوص الى دمياط والاسكندرية ثم بلاد الساحل بأسرها والشام طولا وعرضا وتعفت بلاد كثيرة بحيث لم يبق لها أثر وهلك من الناس خلق عظيم وأمم لا تحصى ، ولا أعرف فى الشام بلدا أحسن سلامة من القدس فانها لم تنك فيه الا ما لا بال ، كانت نكاية الزلزلة ببلاد الافرنج أكثر منها فى بلاد الاسلام كثيرا .

وسمعنا أن الزلزلة وصلت الى اخلاط وتخومها والى جزيرة قبرص ، وأن البحر ارتطم وتموج وتشوهت مناظره فانفرق فى مواضع وصارت فرقه كالأطواد وعادت المراكب على الأرض وقذف سمكا كثيرا على ساحله .

ووردت كتب من الشام ودمشق وحماه تتضمن خبر الزلزلة . ومما اتصل لى من ذلك كتابان أوردتهما بلفظهما .

نسخة الكتاب الوارد من حماه

ولما كان سحرة يوم الاثنين السادس والعشرين من شعبان حدثت زلزلة ، وكادت الأرض تسير سيرا والجبال تمور مورا وما ظن أحد من الخلق الا أنها زلزلة الساعة وأتت دفعتين فى ذلك الوقت، أما الدفعة الأولى فاستمرت مقدار ساعة أو تزيد

(★) بضم التاء وتسكين النون .

عليها ، وأما الثانية فكانت دونها ولكن أشد منها وتأثر منها بعض القلاع فأولها فلقه حماه مع اتقانها وعمارتها وبارين مع اكتنازها ولطافتها وبعلبك مع قوتها ووثقاتها ولم يرد عن البلاد الشاسعة والقلاع النازحة الى الآن ما أذكره ·

ثم حدث فى يوم الثلاثاء السابع والعشرين منه عند صلاة الظهر زلزلة استوى فى علمها اليقظان والنائم ، وتزعزع لها القاعد والقائم ، ثم حدثت فى هذا اليوم أيضا وقت صلاة العصر وصل الخبر من دمشق بأن الزلزلة أفسدت فيها منارة الجامع الشرقية وأكثر الطوسة والبيمارستان جميعه وعدة مساكن تساقطت على أهلها وهلكوا ·

نسخة الكتاب الوارد من دمشق

المملوك ينهى حدوث زلزلة ليلة الاثنين سادس وعشرين شعبان وقت انفجار الفجر وأقامت مدة · قال بعض الأصحاب : انها مقدار ما قرأ سورة الكهف ، وذكر بعض المشايخ بدمشق أنه لم يشاهد مثلها فيما تقدم · ومما أثرت فى البلد سقوط ست عشرة شرفة من الجامع واحدى المآذن وتشقق أخرى وفيه الصاحى يعنى النسر وانخساف الكلاسة ومات فيها رجلان ورجل آخر على باب جيرون وتشقق بالجامع مواضع كثيرة وسقط بالبلد عدة دور ·

وذكر عن بلاد المسلمين أن بانياس سقط بعضها وصفد كذلك ولم يبق بها الا من هلك سوى ولد صاحبها وكذلك تبنين ونابلس لم يبق لها جدار قائم سوى حارة السمرة ويذكر أن القدر سالم والحمد لله ·

وأما بيت جن فلم يبق منه الا الأساس والجدران وقد أتى عليها الخسف ، وكذلك أكثر بلاد حوران غارت لا يعرف لبلد منها موضع يقال فيه هذه القرية الفلانية · ويقال ان عكله سقط اكثرها وصدر ثلثها وغرفة خسف بها وكذلك صافينا ·

وأما جبل لبنان فهو موضع يدخل الناس اليه بين جبلين يجمع منه الريباس الأخضر ، فيقال ان الجبلين انطبقا على من بينهما وكانت عدتهم تناهز مائتى رجل وقد أكثر الناس فى حديثها ·

وأقامت بعد ذلك أربعة أيام تحدث فى النهار والليل ·

ونسأل الله لطفه وتدبيره وهو حسبنا ونعم الوكيل ·

ومن عجيب ما شاهدنا أن جماعة ممن ينتابنى فى الطب وصلوا الى كتاب التشريح فكان يعسر أفهامهم وفهمهم لقصور القول عن العيان فأخذنا آن بالمقس تلاقيه رمم كثيرة فخرجنا اليه فرأينا تلا من رمم له مسافة طويلة ، يكاد يكون ترابه أقل من الموتى به نحدس ما يظهر منهم للعيان بعشرين ألفا فصاعدا وهم على طبقات فى قرب العهد وبعده ·

فشاهدنا من شكل العظام ومفاصلها وكيفية اتصالها وتناسبها وأوضاعها ما أفادنا علما لا نستفيده من الكتب · اما انها سكتت عنها أو لا يفى لفظها بالدلالة عليه أو يكون ما شاهدناه مخالفا لما قيل فيها والحس أقوى دليلا من السمع، فان جالينوس وان كان فى الدرجة العليا من التحرى والتحفظ فيما يباشره ويحكيه ، فان الحس أصدق منه ·

ثم بعد ذلك يتخيل لقوله مخرج ان أمكن فمن ذلك عظم الفك الأسفل ، فان الكل قد أطبقوا على أنه عظمان بمفصل

وثيق عن الحنك وقولنا الكل انما نعنى به ها هنا جالينوس وحده فانه هو الذى باشر التشريح بنفسه وجعله دأبه ونصب عليه وصنف فيه عدة كتب معظمها موجود لدينا والباقى لم يخرج الى لسان العرب ·

والذى شاهدناه من حال هذا العضو أنه عظم واحد وليس فيه مفصل ولا درز اصلا ، واعتبرناه ما شاء الله من المرات فى أشخاص كثيرة تزيد على الفى جمجمة بأصناف من الاعتبارات فلم نجده الا عظما واحدا من كل وجه ، ثم اننا استعنا بجماعة مفترقة اعتبروه بحضرتنا وفى غيبتنا ، فلم يزيدوا على ما شاهدوه منه وحكيناه وكذلك فى أشياء أخرى غير هذه وليت مكنتنا المقادير بالمساعدة ووضعنا مقالة فى ذلك تحكى فى ما شاهدناه وما علمنا من كتب جالينوس · ثم انى اعتبرت هذا العظم أيضا بمدافن بوصير القديمة المقدم ذكرها ، فوجدته على ما حكيت ليس فيه مفصل ولا درز ومن شأن الدروز الخفية والمفاصل الوثيقة اذا تقادم عليها الزمان أن تظهر وتتفرق وهذا الفك الأسفل لا يوجد فى جميع أحواله الا قطعة واحدة ·

وأما العجز مع العجب ذكر جالينوس أنه مؤلف من ستة أعظم ووجدته أنا عظما واحدا واعتبرته بكل وجه من الاعتبار فوجدته عظما واحدا، ثم انى اعتبرته فى جثة أخرى فوجدته ستة أعظم كما قال جالينوس وكذلك وجدته فى سائر الجثث على ما قال الا فى جثتين فقط فانى وجدته فيهما عظما واحدا وهو فى الجميع موثق المفاصل ولست واثقا بذلك كما أنا واثق باتحاد عظم الفك الأسفل ·

ثم اننا دخلنا مصر فرأينا منها دروبا وأسواقا عظيمة كانت مغتصة بالزحام ، والجميع خال ليس فيه حيوان الا عابر

سبيل فى بعض الأحايين ، وان المار فيها ليستوحش ومع ذلك ، فقلما ينفك قطر منها عن جثة وعظام متفرقة حتى خرجنا الى موضع يسمى اسكرجة فرعون ، فرأينا الأقطار كلها مغتصة بالجثث والرمم وغلبت على الآكام بحيث جللتها وكادت تغلب على ترابها ورأينا فى هذه الأسكرجة وهى وهدة عظيمة حينما أشرفنا عليها الجماجم بيضا وسودا ، ووجدنا بعضها على بعض طبقات وقد أخفى كثرتها وتراكمها سائر العظام حتى كأنها رءوس لم يكن معها أبدان يشبهها من ينظرها ببطيخ قد قطع وجمع حتى صار كالبيدر ، ثم رأيتها بعد أيام وقد عرقتها الشمس وابيضت فشبهتها ببيض النعام المتراكم .

ولما رأيت خلو تلك الحارات والأسواق من الناس وامتلاء تلك الصحارى والآكام ، خيل الى أنه سفر ارتحل فأخلى مكانا وشغل آخر هذا ، مع أنه اية جهة نحاها القاصد صادف فيها ما حكينا وأضعافه .

ووجد فى ذى الحجة بمصر امرأة ذبحت صبيا لتأكله فأخذت وغرقت وقد ارتفعت هذه الحال وانقطع خبرها ومشاهدتها لم يوجد سوى هذه المرأة . ومن عجيب الكائنات فى هذه المدة أن مولودا فى سبع وتسعين ولد براسين وولد مولود آخر أبيض الشعر ورأيته وليس هو كبياض الشيب ، بل يحيل الى صهوبة ما . وولدت فى هذه السنة بغلة ولدت ميتا وبقى فى دار الوالى أياما كثيرة ، وفى سنة ثمان وتسعين وجدت سخلة ذات لبن كان يخرج من حلمتها كأنه خيط دقيق وأحضرت بدار الوالى مرات وآخر ما أحضرت وعمرها أربعة أشهر .

وأما خبر النيل فى هذه السنة فنحن نسوقه باختصار أما أولا ، فانه احترق فى طوبة ثم تزايد احتراقه حتى صار مخاضات للناس والدواب وظهرت الخضرة فيه فى جمادى الآخرة الكائن فى برمهات وتزايدت جدا فى رجب حتى ظهرت فى طعمه ولونه وريحه ثم تناقصت حتى ذهبت أصلا وانتهى احتراقه فى رمضان ، وانحسر عن المقياس نحو ثمانمائة ذراع ، وأطالع أبى الرداد باستقرار الماء يوم الثلاثاء لخمس بقين من بؤونة وأربع بقين من رمضان من سنة ثمان وتسعين فكان القاع ذراعا ونصفا وكان فى السنة الخالية ذراعين ، وابتدأ فى الزيادة فى السنة الخالية من هذا اليوم ، فأما فى هذه السنة فان زيادته تأخرت الى الخامس والعشرين من أبيب لم يزد فى هذه المدة سوى أصابع ، حتى ساءت ظنون الناس وشملهم اليأس وظنوا أن حادثا وقع بفوهته وعند مبدا جريته ، ثم أخذ فى الزيادة حتى انسلخ أبيب وهو على ثلاث أذرع ووقف يومين ؛ فاشتد هلع الناس لخروجه فى التوقف عن المعتاد ، ثم انه اندفع بقوة وزيادات متداركة وجبال من المياه متدافعة ؛ فزاد ثمانى أذرع فى مدة عشرة أيام منها ثلاث أذرع متوالية ، وانتهى فى رابع توت وهو الثانى عشر من ذى الحجة الى ست عشرة ذراعا تنقص اصبعا وقام يومين ، ثم أخذ ينحط متباطئا وينصرف رويدا . فهذا ما قصدت اقتصاصه من أحواله هذه الكائنة فليكن آخر المقالة ومنتهى الكتاب .

والحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيد المرسلين محمد النبى الأمى وعلى آله الطيبين الطاهرين .

كتبه مؤلفه الفقير الى الله تعالى عبد اللطيف بن يوسف ابن محمد البغدادى فى رمضان سنة ستمائة بالقاهرة .

الكشـــاف

(ب)

(ت)

(ث)

(ج)

(ذ)

(ر)

(ز)

(س)

(ش)

(ص)

(ك)

(ل)

(م)

منذ عصر الإغريق على أقل تقدير، ومصر مقصد للرحالة من المشرق والمغرب.
وقد ترك لنا هؤلاء الرحالة صور نابضة بالحياة لمصر في تلك العصور الغابرة، صورة تفضل في كثير من الأحيان كتابات المؤرخين لأنها تنقل مشاهدات حية رآها الرحالة بأعينهم وتسجل العادات والتقاليد والأنشطة الاجتماعية والاقتصادية وغيرها. وهي تفضل أيضاً كتب التاريخ الرسمي لأنها تسجل وترصد بعض الجوانب من حياة الشعب التي كثيرا ما أهملها المؤرخون التقليديون. ومن خير هؤلاء الرحالة في العصور الوسطى عبد اللطيف البغدادي. وهو طبيب وعالم مسلم ولد في بغداد وعاصر صلاح الدين الأيوبي، وعمل في خدمته في الشام.
ثم عمل في خدمة أولاده في مصر. وكتابه، على صغره، هام لأنه يتميز بنزعة علمية في الوصف والبحث كما يتضح من اسمه الإفادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر. وهو يبدأ كتابه باستعراض لخواص مصر العامة، ثم يعرض لنباتها وحيوانها. وقد اهتم اهتماماً كبيراً بوصف الآثار الفرعونية التي يبدي أشد الإعجاب بها ويسرد المعتقدات الشائعة حولها في عصره.
وقد اندثر الكثير مما وصف بفعل الإهمال والتخريب. ولكي نعرف حجم خسارتنا، نطالع وصفه للآثار القائمة بمدينة عين شمس، حيث يقول إن بها تماثيل كان ارتفاع الواحد منها يصل إلى ٣٠ ذراعاً،
أي حوالي ١٥ متراً، ويسجل أن بوابتها كانت لا تزال قائمة في عصره، وقد اختفى كل ذلك اليوم. ولذا فقد باتت لهذا الكتاب أهمية كبيرة لدى المعنيين بالدراسات المصرية القديمة.

٣٠٠ قـــرش

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب